28

روايات عالمية للجيب

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

قصة : ارثر كونان دويل

ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق



روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



لم يعد السير (آرثر كونان دويل) وجهًا جديدًا على هذه السلسلة ، فقد قابلنا الأديب الإنجليزى العظيم مرتين من قبل .. فى رواية (العالم المفقود) التى قدمناها فى الكتيب رقم (19) ، ورواية (كلب آل باسكرفيل) فى الكتيب رقم (24) ..

ولقد عرفنا الكثير عن هذا الأديب .. ولن نغالى فى التكرار لو قلنا إنه طبيب هوى الأدب ، واستطاع أن يعطى حياته للمجالين معًا دون أن يتنازل عن أحدهما ..

كان من الممكن أن يموت دون أن يحظى إلا بشهرة محدودة ، لو لم تنجب لنا عبقريته شخصية من أكثر الشخصيات خلودًا فى التاريخ .. هى شخصية

(شيرلوك هولمز) . المخبر البوليسى المتأنق ذى العينين الثاقبتين والأنف المعقوف ، والغليون الذى لا يفارق شفتيه ..

كان نجاح (هولمز) ساحقًا حتى إن (كونان دويل) حاول أن يقتله ـ فى القصص ـ مرارًا .. وراح يجرب حظه فى مجالات أخرى ، منها التاريخ (الشركة البيضاء) ، وتحضير الأرواح (تاريخ مذهب تحضير الأرواح) ، ثم كتب رواية لم يكن بطلها (هولمز) هى (العالم المفقود) ..

وقد حظيت الرواية بنجاح ساحق ، دفعه إلى أن يقدم نفس الأبطال فى رواية تالية هى التى بين يديك الآن .. والذين قرءوا الرواية السابقة ـ فى الكتيب رقم (19) ـ يعرفون جيدًا أبطال الرواية الحالية :

(نيد مالون) المخبر الصحفى الشاب الأخرق إلى حدّ ما ، والبروفسور (تشالنجر) المغرور العصبى الفظ الشبيه بالغوريللا ، والمستر (سومرلى) أستاذ تشريح الحيوان المقارن ، الناحل العصبى .. ولورد (روكستون) القوى الجسور ..

إن الرواية ممتعة بحق .. لهذا دعونا لا نفسدها

بالكلام عن عقدتها .. لكنك ستجد فيها روح هذا الأديب العظيم المتوثبة إلى الإثارة ، والتى تحمل احترامًا شديدًا للعلم وللعلماء ..

وبرغم هذا كله لم يستطع الرجل الفرار من عالم (هولمز) ، واضطر إلى العودة إليه ليقدّم لنا المزيد من الروايات فائقة الإمتاع ..

د. أحمد خالد

★ ★ ★

١ ـ الخطوط التى اختفت ..

أرى من الضرورى أن أسارع إلى تسجيل هذه الأحداث وهى ما تزال بذاكرتى ، قبل أن أنساها فتضيع ، وإنى حين أفعل ذلك لأعجب من المصادفة التى جعلت جماعتنا القديمة :

البروفسور (تشالنجر) والبروفسور (سمرلى) واللورد (جون روكستون) وأنا ..... يلتئم شملها من جديد .

لقد قامت جماعتنا هذه منذ عهد مضى برحلة فى مجاهل (أمريكا الجنوبية) ، واجهنا فيها كثيرًا من المحن والأهوال ، وعندما عدنا بسلام إلى (إنجلترا) ونشرت مذكراتى عن هذه الرحلة فى جريدة (ديلى غازيت) ؛ لم يشغل بالى لحظة أنه سيجتمع شملنا نحن الأربعة من جديد ، فى محنة أشد فزعًا ، ولربما كانت فريدة فى نوعها .

إن الظروف التى جمعتنا نحن الأربعة بما فى ذلك

من ملابسات وحوادث أدت إلى هذا الاجتماع ، لجديرة بالعجب .

كان ذلك فى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر (أغسطس) من عام ..... وهو يوم لا ينسى ، عندما طلبت من إدارة الصحيفة التى أعمل بها إجازة لمدة ثلاثة أيام ، وكان مستر (ماكاردل) رئيسًا لقسم الأخبار .

قال بتردُّد شديد :

ـ « أخشى أننا نود الإفادة منك ، يا مستر (مالون) ، فى مهمة عاجلة .. كنت أظنك رجلها الوحيد .. »

وأجبته وأنا أحاول إخفاء أسفى :

ـ « إذا كان من الضرورى فلا بأس من أن ..... ولكنى مرتبط بموعد مهم ... وشخصى ... ولو أمكن إعفائى .. »

فقاطعنى (ماكاردل) قائلاً :

ـ « آسف ، فلا سبيل إلى إعفائك منها .. »

وكانت صدمة مؤلمة ، فأجبت فى شىء من الفتور :

ـ « حسن ، أى مهمة تلك التى تريد أن تعهد إلىَّ بها ؟ »

ـ « أريد أن تسعى لمقابلة ذلك الشيطان الذى يقيم فى (رونرفيلد) .. »

فصحت به :

ـ « أتعنى الأستاذ (تشالنجر) ؟ »

ـ « أجل .. لقد حاولت صحيفة (الكورير) عن طريق مندوبها (إليك سمبسون) .. لكنه فشل فشلاً ذريعًا ، فما كان من جميع رجالنا سوى رفض السعى لمقابلته .. وقد ذكرت أخيرًا أنك على علاقة به قد تشفع لك ، وتمكنك من القيام بهذه المهمة .. »

وقلت فى ارتياح ظاهر :

ـ « لقد طلبت هذه الإجازة لأذهب إلى (رونر فيلد) لزيارة الأستاذ ، فإنها الذكرى السنوية لرحلتنا إلى (أمريكا الجنوبية) ، وقد بعث لجميع الزملاء للاحتفال بهذه الذكرى .. »

فقال (ماكاردل) وهو يفرك يديه :

ـ « حسن ، وستسنح لك الفرصة لمعرفة رأيه .. »

فسألت فى دهشة :

ـ « رأيه فى أى شىء ؟ ماذا فعل ؟ »

ـ « ألم تقرأ الخطاب المفتوح الذى بعث به إلى

جريدة (التيمس) ، والمنشور تحت عنوان (احتمالات علمية) ؟ »

ـ « نعم ...... »

ـ « اقرأ ... اقرأ فى صوت مرتفع ، إذ أشك فى أننى استوعبت رأى الرجل تمامًا عندما طالعتها فى المرة الأولى .. »

وأخذت أتلو الخطاب المنشور :

« احتمالات علمية »

سيدى ..

طالعت بدهشة الخطاب الذى نشرته الجريدة لمستر (جيمس ماكفيل) ، حول موضوع اختفاء (خطوط فراونهوفر) عن التحليل الطيفى لضوء الكواكب السيارة والنجوم الثابتة ، فهو لا يقيم لاختفاء هذه الخطوط وزنًا ، على حين أن هناك من يرون فى هذه الظاهرة احتمالات شتى بالغة الأهمية ، قد تتناول مستقبل جميع المخلوقات البشرية التى تعيش على هذا الكوكب .. الأرض ..

سأحاول وسعى أن أبسط الموضوع مستعينًا ببعض الأمثلة العادية التى يتسع لها فهم كل قارئ ..

لنفترض أننا ربطنا عددًا من قطع الفلين إلى بعضها البعض ، ثم ألقينا بها فى ماء المحيط الأطلسى لتتخذ طريقها فيه ، فستظل طافية تتحرك يومًا بعد يوم مع التيار ، وفى ظروف متشابهة لا تغيير فيها ولا تبديل .. ولكننا ـ ونحن نفوقها إدراكًا ـ نعلم أن هذه الرحلة التى تظنها قطع الفلين أبدية مطمئنة تعترضها عوائق كثيرة ، فقد ترتطم بسفينة أو بحوت ، وستنتهى إلى شواطئ (لبرادور) الصخرية فى الجانب الآخر من المحيط ..

ولكن هل تدرك قطع الفلين شيئًا من هذا المصير وهى تطفو هادئة فوق صفحة الماء ؟!

ولعل أوجه الشبه فى هذا المثال ، أن المحيط الأطلسى هو ذلك الفضاء الأثيرى العظيم الذى تندفع فيه ، وقطع الفلين هذه ما هى إلا المجموعة الشمسية التى تنتسب إليها أرضنا ..

فالأرض وغيرها من سيارات هذه المجموعة تدور حول شمس ـ هى بدورها من القدر الثالث بين الشموس ـ والمجموعة بأسرها تندفع إلى مصير مجهول أشبه شىء بمصير قطع الفلين ..

والآن نعود إلى موضوعنا الأصلى ، لقد تمكن العلم من تحليل الضوء المنبعث من الشمس أو غيرها من النجوم إلى أطياف ، وإن اختفاء (خطوط فراونهوفر) من التحليل الطيفى يدل ـ فى نظرى ـ على أحد أمرين : إما على تبديل فى طبيعة الشمس والنجوم الأخرى ، وهذا غير جائز ؛ لأننا لم نشاهد شيئًا من ذلك ، وإما على تبديل فى الفضاء الذى يفصل بين هذه الكواكب وبيننا .. ذلك الفضاء الذى تمر فيه أشعة الضوء قبل أن تتحلل ، ومعنى هذا أن مجموعتنا الشمسية قد بلغت فى سيرها نطاقًا من الفضاء يختلف أثيره عن الأثير العادى الذى ظلت تسير فيه ملايين السنين .. أثير جديد نجهل خواصه ..

أجل ، لا شك فى حدوث هذا التغيير ، وقد أثبته جهاز التحليل الطيفى ، أما كنهه فلا سبيل إلى التنبؤ به ، فقد يكون خيرًا ، وقد يكون وبالاً ، أو قد لا يكون له أثر بالمرة ..

لقد أعلنت صحيفتكم عن انتشار الأمراض بين الشعوب البدائية التى تقطن جزر (الباسفيك) .. وقد يكون لذلك علاقة بالتغيير الكونى الذى أشرت إليه .

المخلص ـ جورج إدوارد تشالنجر

قال (ماكاردل) وهو يستريح فى مقعده :

ـ « كتاب مثير حقًا .. ما رأيك يا مستر (مالون) ؟ »

ـ « لن أحاول أن أخفى جهلى بالموضوع .. فلست أعرف أصلاً ما هى (خطوط فراونهوفر) هذه التى اختفت .. »

وأخرج (ماكاردل) من درج مكتبه ورقة رسمت عليها مربعات متجاورة ملونة بألوان قوس قزح ، ثم قال :

ـ « لقد درست الموضوع قليلاً .. أتعرف ألوان قوس قزح ؟ إنها نفس الألوان التى يتحلل إليها ضوء الشمس عندما يمر بجهاز التحليل الطيفى .. مبتدئة باللون الأحمر ثم البرتقالى ثم الأصفر ثم الأخضر .. ثم الأزرق ثم النيلى ثم البنفسجى .. أترى هذه الخطوط السوداء التى تبدو فوق مجموعة الألوان ؟ هى ما يسمونه (خطوط فراونهوفر) والتى أثار اختفاؤها جدلاً بين الفلكيين .. »

وبهذا كان خطاب (تشالنجر) له وقع الصاعقة .

ـ « وما أنباء المرض التى تقول بانتشاره فى جزر (الباسفيك) ؟ »

ـ « أخشى أنه قد بالغ فى الربط بين الموضوعين ، ومع ذلك حاول أن تحصل من الأستاذ على شىء مثير لعدد صباح الإثنين .. »

ـ « سأبذل كل جهدى بلا شك .. »

وانصرفت من حجرته ، حين لحق بى أحد العمال وسلمنى رسالة هذا نصها :

ـ « (مالون) ـ ١٧ شارع هيل ـ مستر (بتهام) .. »

« أحضر معك (أكسوجين) ـ (تشالنجر) ! »

ما هذه البرقية الغريبة ؟ أهى إحدى مداعباته ؟ ولكن صيغة الأمر واضحة فى البرقية ، وكان (تشالنجر) آخر من أفكر فى أن أعصى له أمرًا ..

واستوقفت سيارة تاكسى إلى مخزن الشركة فى شارع (أوكسفورد) ..

وفيما كنت أترجل من السيارة أمام البناء ؛ رأيت شابين يغادران الباب ويحملان أسطوانة كبيرة ، ثم وضعاها فى سيارة خاصة ، وكان يتبعهما رجل مسن وقور ، وما إن استدار حتى عرفته .. لقد كان هو الأستاذ (سمرلى) زميلنا القديم بلحيته البيضاء ..

وصاح (سمرلى) عندما رآنى :

- « لا تقل لى إنك تلقيت نفس البرقية .. فلست أدرى لماذا لم يطلب من الشركة مباشرة أن تبعث إليه بما يريده .. »

وأمرت العاملين أن يحضرا أسطوانة أخرى من (الأوكسجين) ، ثم انصرفت إلى سائق سيارة التاكسى التى أقلتنى أنقده أجره ، فقد عرض علىّ الأستاذ (سمرلى) أن يصحبنى بسيارته إلى محطة (فكتوريا) ..

وكان هذا وسط غارة من التبرم والتذمر من سائق السيارة التاكسى والعاملين .. ولكن لماذا ؟ لست أدرى ..

وتنفست الصعداء عندما جلست إلى جوار (سمرلى) واندفعت بنا سيارته إلى محطة (فكتوريا) .. ولاحظت أن السائق غير متمكن من أعصابه ، إذ خالف أصول القيادة أكثر من مرة .. وحسبته بسبب النزاع الذى أوشك أن يقع بينه وبين عامل المتجر ، ولكن أخطاءه تكرّرت فقلت :

- « يبدو لى أن مستوى سائقى السيارات قد هبط كثيرًا فى (لندن) هذه الأيام .. وأن سائقنا لم يكن

الوحيد الذى فقد سيطرته على أعصابه يومئذ ، فقد مررنا قبل أن نصل إلى محطة (فكتوريا) بما لا يقل عن العشر حوادث تصادم ارتكبها سائقو سيارات خاصة وعامة .. »

وأخيرًا بلغنا محطة (فكتوريا) .. وبينما نحن فى طريقنا إلى القطار المتجه إلى ضاحية (روذر فيلد) ؛ سررنا عندما وجدنا اللورد (روكستون) يذرع الإفريز بخطواته الواسعة ، وتقدم وهو يهتف :

- « هالو ! مرحبًا بسيدى البروفسور .. وكذا أنت أيها الصديق الصغير .. »

وما إن رأى أسطوانتى (الأوكسجين) على كتف الحمال الذى كان يسير خلفنا ، حتى هتف يقول :

- « إذن فقد كلفتما أنتما أيضًا بذلك ! لقد أودعت أسطوانتى عربة القطار .. ترى ماذا يريد صديقنا العجوز بهذا كله ؟! »

فسألته على الفور :

- هل طالعت خطابه المنشور فى جريدة (التيمس) ؟

فسألنى :

- « ماذا فيه ؟ »

فقال الأستاذ (سمرلى) فى جفاء :

ـ « هراء ! »

واتخذنا مجلسنا بإحدى عربات الدرجة الأولى ، ثم استأنف (سمرلى) يقول :

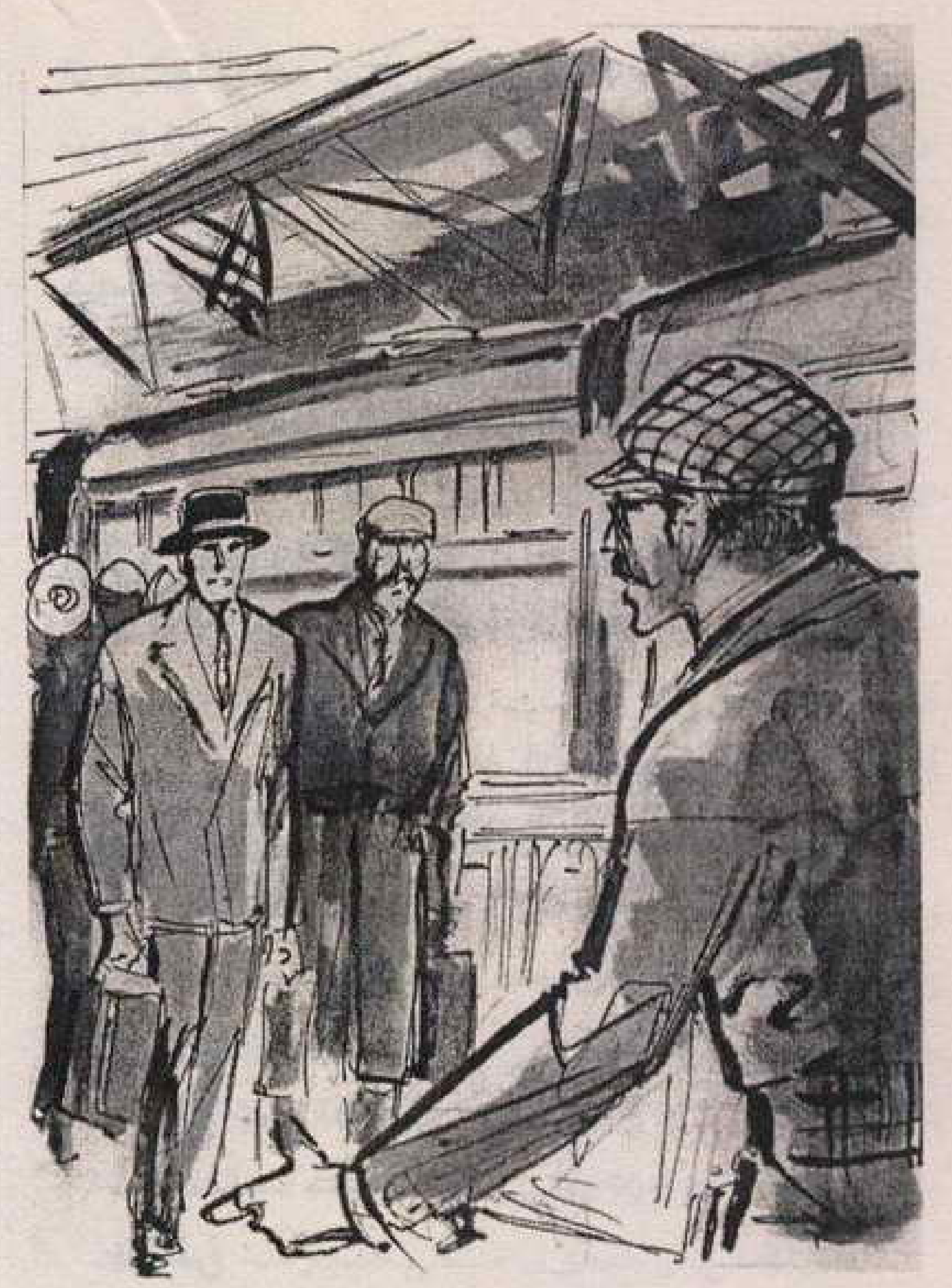
ـ « صديقى (تشالنجر) رجل ماهر وعبقرى ، ولا سبيل إلى إنكار عبقريته ، ولكنه يا عزيزى دجال مشعوذ ، لا يترك فرصة للشهرة والظهور تحت الأضواء إلا وانتهزها ..

« إننى واثق تمامًا بأنه لا يصدِّق شيئًا مما كتبه فى الجريدة ، لكنه لا يرتاح لفترة الهدوء والاستقرار التى تجتاز العالم الآن ، ومن ثم تراه يخلق موضوعًا يثير الناس ، ويملأ قلوبهم بالفزع لكى يذيع اسمه بينهم .. »

وآلمنى ما سمعته من البروفسور (سمرلى) عن صديقنا (تشالنجر) .. وأوشكت أن أعبِّر عن ألمى ، لولا أن سبقنى اللورد (جون) قائلاً :

ـ « أنت دائم المعارضة لـ (تشالنجر) .. ولكنك دائمًا تنسحب منهزمًا ، وما دام هذا هو اعتقادك فلماذا لا تدعه وشأنه وتمضى فى سبيلك ؟ »

وبادرت أضيف إلى عبارته :



سررنا عندما وجدنا اللورد (روكستون) يذرع الإفريز بخطواته الواسعة ، وتقدم وهو يهتف : ـ « هالو ! مرحبًا بسيدى البروفسور » ..

- « وفضلاً عن ذلك فهو صديق لكل منا ، ومهما كانت أخطاؤه فإنه يتميز على الأقل بالصراحة ، ونفوره من اغتياب أصدقائه .. »

هتف اللورد (جون) :

- « دعنا من الشجار الآن ، حسبنا ما مرَّ بنا جميعًا من أهوال قابلناها متحدين ، وإنى أحذرك مرة أخرى من النيل من (تشالنجر) .. ورأيك فى المسائل العلمية لا تزيد قيمته شيئًا عن رأيى فى بنادق الصيد .. والعلم يا صديقى ليس بالشىء الذى يتربع على منصب الزعامة فيه رجل معصوم بمثل ما يفعل البابوات فى الكنيسة .. »

« وبعد فإذا راق لك أن تصدق ما سمعته عن اختفاء خطوط (فراونهوفر) من التحليل الطيفى للأشعة ، وما يترتب على ذلك ، فلك أن تفعل ما تريد .. »

ووجدتنى أقول :

- « أرجِّح أنه لم تصلك بعد جميع المعلومات اللازمة عن الموضوع ، وإلا لغيرت رأيك أو خففت من حدة نقدك .. فقد تلقى رئيس التحرير عدة برقيات تؤكد انتشار الأمراض فى شكل وبائى بين أهالى (سومطرة)

الوطنيين ، كما تنبئ بانطفاء الأنوار بغتة فى كافة المنارات المقامة فى مضيق (صندا) .. »

وازداد النقاش حدَّةً بين اللورد (جون) والبروفسور ، حتى إننى رفعت يدى إلى وجهى أخفيه أسفًا وخجلاً ، وقلت متدخلاً :

- « كفى ما سمعنا .. وإنه لأمر مؤسف حقًّا .. »

وخيل إلىَّ أن الصمت ساد بيننا برهة غير قصيرة لم يقطعه سوى صوت البروفسور يقول فجأة :

- « أخشى أن أكون قد أغضبتك قليلاً يا سيدى عندما كنا نتجادل .. فهل لى من ابتسامة منك تعلن عنى الصفح ؟ »

وفيما كان البروفسور يتحدَّث ، توقف بنا القطار فى محطة (جارفس بروك) التى تقع على مقربة من (روزر فيلد) ، وهناك وجدنا (تشالنجر) ينتظرنا على الإفريز ..

وأقبل علينا بقامته المديدة ورأسه المرفوع وصافحنا بحرارة ، ثم سار بنا إلى سيارته التى تنتظر خارج المحطة .. ومعنا أسطوانات (الأوكسجين) ، وجلست إلى جوار السائق (أوستن) ، وكانت

معرفتى به ترجع إلى عهد رحلتنا الأولى .. فهمس لى قائلا :

ـ « أتعلم يا سيدى أننى على وشك ترك خدمة السيد (تشالنجر) ؟ لقد أنذرنى بالفصل .. إنه الإنذار السابع والأربعون ، ولكنى لن أتركها .. من الذى يسهر على راحته ، بل من لديه قوة الاحتمال والصبر على خدمته ؟ »

فقلت له :

ـ « كثيرون ! »

فابتسم قائلاً :

ـ « كلاً يا سيدى ! لن يحتمله أحد أكثر من أسبوع واحد ، وبدونى يصبح البيت كساعة الحائط إذا ما نزعت منها الزنبرك .. ولأضحى البروفسور وزوجته كطفلين ضلا الطريق فى الغابة .. ومن الغريب أنه يعلم ذلك ، ومع ذلك يعلننى بالفصل .. »

ـ « ولكن لماذا تقول إن أحدًا لا يحتمل خدمته ؟ »

ـ « لأن الناس لا تتسامح .. ولا تتسع صدورها بمثل ما أفعل .. أتعرف ما حدث صباح اليوم .. »

ـ « ماذا حدث ؟! »

ـ « الأستاذ عض الخادمة ! ولقد رأيتها وهى تفر من البيت كما لو كانت تشترك فى سباق عدو ، أما معاملته للجيران .. فلم يَبْقَ على صديق واحد فى الجوار .. »

وكنا قد اقتربنا من التل الذى يقوم على قمته بيت (تشالنجر) ، فهمس لى (أوستن) :

ـ « اقرأ ما على اللافتة .. »

وقرأت ..

« تحذير »

« لن يلقى الزوار ، وبخاصة مراسلى الصحف أى تشجيع منا .. »

ودخلت السيارة وتوقفت بنا أمام البيت الريفى الجميل حيث كانت زوجته فى انتظارنا ..

وأسرعت إلينا بمنتهى الرشاقة ترحب بنا ، وقال لها الأستاذ :

ـ « ضيوف يا سيِّدتى .. ولعلك لم تألفى هذا الوضع منذ مدة طويلة .. »

وقالت السيِّدة :

ـ « إنه من المؤلم حقًا أن يخاصم (جورج) جميع الجيران .. ولا يبقى لنا صديقًا واحدًا .. »

وهنا تذكَّر (تشالنجر) شيئًا نسيه فقال متداركًا :

ـ « هل عادت (سارا) ؟ »

نفت السيِّدة عودتها فضحك وصاح بالسائق :

ـ « (أوستن) ! أتسمح بمساعدة السيِّدة فى إعداد الغذاء ؟ هيَّا أيها السادة إلى مكتبتى فلى معكم حديث مهم .. »

★ ★ ★

٢ ـ طوفان الموت ..

ونحن بطريقنا إلى حجرة المكتب سمعنا رنين الهاتف ، ورد (تشالنجر) بصوته الجهورى الذى أجبرنا على متابعة المكالمة يقول :

ـ « أجل .. أنا (تشالنجر) .. العالم المعروف طبعًا .. ماذا ؟ الخطاب المنشور فى جريدة (التيمس) ؟ أجل .. وكل الدلائل تشير إلى ذلك .. ماذا ؟ وماذا يمكننى أن أفعل ؟ لا شك أنه أمر مؤسف حقًا .. ولكن ليس بوسعى أن أدفع شرها .. كفى يا سيِّدى فلا يتسع وقتى لهذا .. »

وألقى بالسماعة وتقدمنا حيث المكتبة .

ودعانا للجلوس ، ثم بدأ يفض عددًا من الرسائل والبرقيات الواحدة بعد الأخرى .. وكان مكانى بجوار النافذة ، وقد كانت المناظر خلابة حقًا ..

وبدأ (تشالنجر) الحديث :

ـ « إننى سعيد لاجتماعنا مرة أخرى ، وقبل أن

أبدأكم الحديث ، هل أوجه إليكم سؤالاً واحدًا ؟ إنه غريب ولكنه ضرورى !
ألاحظتم شيئًا غريبًا فى طريقكم من (لندن) إلى هنا ؟ »

وأخذ كل منا يسترجع ما حدث ، واكتشفنا أنه لم يحدث شىء ، سوى ما حدث داخل عربة السكة الحديد من نقد (سمرلى) لخطاب (تشالنجر) المرسل إلى (التيمس) .. وما إن سمع (تشالنجر) هذا حتى ضحك طويلاً ثم قال :

- « (سمرلى) ينقد كتابى ؟! »

ثم نظر إلى الأستاذ وسأله :

- « أوه .. على أى شىء تعترض يا أستاذ (سمرلى) ؟ »

أجابه هذا :

- « قلت لو أن الأثير الذى تسبح فيه الأرض قد تأثر فعلاً كما تقول بما يسبب هذه الأمراض المنتشرة بشكل وبائى ، لكان انتشارها عامًا ، وليس مقصورًا على منطقة بعينها ، ولما بقى ثلاثتنا سالمين فى عربة السكة الحديد .. »

عاود الضحك (تشالنجر) مرة أخرى ، ثم قال :

- « يبدو لى أن (سمرلى) غير ملم بتفاصيل الموضوع .. وسوف ألقى عليه بعض الضوء بأن أروى ما حدث هذا الصباح .. »

تلك المدعوة (سارا) ، التحقت بخدمتنا منذ سنين ، وهى ذات كفاءة عالية ، نشيطة ، رزينة ، صارمة .. وددت أن أجرب مدى احتمالها ، ومدى احتفاظها بوجهها الجامد ..

« وتعمَّدت أن أقلب مزهرية ، ثم قرعت الجرس أستقدم (سارا) ، وقبل أن تصل اختفيت تحت المائدة .. »

« وظنت (سارا) أننى انصرفت إلى مكتبى ، وأخذت تصلح من وضع المزهرية .. ورأيت ساقيها النحيلتين فى الجورب القطنى الأبيض ، وبسرعة أطبقت بأسنانى على ساقها ! »

« وجدتها مذعورة ، ثم أطلقت صرخة هائلة وفرَت مسرعة .. حاولت اللحاق بها فلم أتمكن .. وكان آخر عهدى بها أن رأيتها بمنظارى المقرب تعدو فى الحقول تجاه الجنوب الغربى .. »

« والآن ما قولكم فى هذا الحادث أيها الأصدقاء ؟ »

فقال اللورد (جون) وهو لا يصدِّق ما سمع :
ـ « يجب أن تضع حدًا لشذوذك يا سيدى ، إنه محرج للغاية .. »
والتفت (تشالنجر) إلى (سمرلى) وقال :
ـ « وما هى ملاحظاتك ؟ »
ـ « أعتقد أنك بحاجة للراحة .. »
والتفت إلىَ وقال :
ـ « وهل لى أن أسمع ملاحظة صديقنا الشاب ، ما دام التوفيق لم يكن حليفًا لمن هم أكبر منه سنًا ؟ »
صحت باقتناع أقول :
ـ « سمّ ! »
« إن الأمر واضح كل الوضوح ، فقد مرَّت بخاطرى كل الأحداث التى مرَّت بنا طوال النهار ، فتذكرت المشادة والتهكم على ما نشره (تشالنجر) فى الصحيفة من أصدقائه المقربين ، ثم حوادث التصادم بطرقات (لندن) ، إلى جانب اضطراب سائق سيارة الأستاذ .. وما كان من عمال متجر (الأوكسجين) .. توالى الحوادث والأحداث بمثل

هذا الشكل ينطق بحقيقة واحدة .. لقد تسممنا جميعًا ! »
هنا قال (تشالنجر) وهو يفرك يديه فى سعادة :
ـ « تمامًا .. رائع يا بنى .. إن الأرض تجتاز الآن فى الفضاء نطاقًا سامًا من أثير مخالف .. والأرض تتعمق شيئًا فشيئًا فى هذا النطاق السام بسرعة ملايين الأميال فى الدقيقة .. »
وأخذنا نتطلَّع أحدنا نحو الآخر فى حيرة ودهشة .. بينما استأنف (تشالنجر) :
ـ « مدى المقاومة لهذا التسمُّم يختلف باختلاف الاستعداد الجسمانى والعقلى .. إنه لم يسبق لى أن شعرت برغبة فى عض أحد من خدمى .. وهى بذلك رغبة شاذة وغير طبيعية .. »
« وسرعان ما وجدت نبضى يزيد عشرًا عن المألوف .. وأخذت أحث نفسى على التزام الحزم والتعقل بمناشدة شخصية البروفسور (جورج تشالنجر) الذى أعرفه .. فتغلب العقل على المادة .. فقد تأثرت مادة العقل نفسه ، لكن الشخصية المتزنة سيطرت عليه وألزمته حدوده .. »

« وتبينت هذا النجاح عندما تغلبت على خواطر العبث والكيد ، بمزيج من الاحترام والإجلال .. »

« وبعد ذلك بقليل شعرت برغبة شديدة فى تقليد بعض أصوات الحيوانات ، لكنى أيضًا بددت هذه الرغبة وتغلبت عليها .. »

« وحتى هذه اللحظة أشعر برغبة ملحة تدعونى لأن أمسك بلحية (سمرلى) وأهز رأسه بعنف ، وهأنتم أولاء تروننى أكبح هذه الرغبة .. »

قال (سمرلى) :

ـ « قد يكون صوابًا يا عزيزى (تشالنجر) ، ولا يسعنى سوى أن أقر بأن استعدادى الذهنى هو للنقد أكثر منه لبناء الأسباب وإيجاد العلل .. حقًا أن ما مر بنا اليوم وما رأته عيناى ، يسهل على الاعتقاد بأن سمًا مثيرًا من نوع معين هو المسئول عن هذه الأعراض الغريبة .. »

وهنا صاح (تشالنجر) :

ـ « لقد تقدمنا فى حل المشكلة .. أجل ، لقد حققنا تقدمًا .. »

فقال (سمرلى) :

ـ « وما رأيك فى الموقف عامة ؟ »

ـ « لو جاز تحليلى لهذه الظاهرة ، فنحن نقترب من نهاية العالم ! »

قالها فكأنها صاعقة هبطت علينا ، ورحت أطالع المروج الخضراء من النافذة .. أيمكن أن يمحى ذلك كله ؟

وعاد (تشالنجر) يقول :

ـ « إن البستانى ينتزع العنقود المصاب ببعض الطفيليات الدقيقة .. ولكى ينظفه يغمسه فى سائل مطهر للقضاء على الطفيليات .. وهكذا فإن البستانى الأعظم يطهر المجموعة الشمسية من الطفيليات البشرية بغمسها فى نطاق من أثير سام يأتى عليها .. »

وهدأ الحديث على صوت رنين الهاتف فنهض إليه :

ـ « إنه مفتش الصحة فى مدينة (برايتون) .. إن الأراضى التى تقع فى مستوى سطح البحر ؛ تعانى من انتشار أعراض التسمم .. »

تنهَّد (سمرلى) ونظر إلى النافذة وقال فجأة :

ـ « (تشالنجر) .. ألا تظن أن الموضوع فيه شيء من المبالغة ؟ إن الشمس زاهية ، وجمال الطبيعة يغمر كل مكان .. والعمال يحصدون القمح ، وهذا عندك هو يوم القيامة الذى انتظره الجنس البشرى منذ قرون وقرون !!

« فهل على اختفاء خطوط من تحليل الطيف الشمسى ، وعلى إشاعات بانتشار أوبئة بجزيرة ما ، وعلى بعض التصرفات الحمقاء التى قام بها بعضنا .. تبنى حكمك ؟

« (تشالنجر) .. أرجوك صارحنا بحقيقة الموقف .. ما هو الخطر الذى يتعرَّض له العالم الآن ؟ وما مداه ؟ وكيف نواجهه ؟ »

قال (تشالنجر) موجهًا كلامه إلىَّ :

ـ « ماذا كانت الأنباء عندما غادرت (لندن) ؟ »

ـ « كانت هناك برقية لشركة (رويتر) بعث بها مراسلها فى (سنغافورة) ؛ تقول إن المرض عام فى (سومطرة) وأن المنائر قد أطفئت أنوارها .. »

قال (تشالنجر) وهو يحرِّك جمع البرقيات التى أمامه :

ـ « لقد توالت الأحداث سراعًا فى تلك الفترة الوجيزة ، إن الأنباء تأتى عن طريق السلطات المختصة ، وكذا الصحافة .. والكل يطالب بسفرى إلى (لندن) ، لكنى لم أفعل شيئًا .. »

« والخلاصة أن هذا التسمُّم ـ كما أسميناه ـ يبدأ بتوتر عقلى .. وعندى برقيات تعلن أن الشعب الذى اجتاح (باريس) هذا الصباح كان عارمًا ، وأن عمال مناجم الفحم فى (ويلز) قد اشتدَّ غضبهم .. وهذا التوتر العقلى تتبعه غيبوبة وشلل فى الحركة ، كمن يتعاطى مخدرًا .. »

فقال (سمرلى) :

ـ « إن نبات (الداتورة) يقوم بعمل مشابه .. »

ـ « نعم .. حقًا .. ويُطلق على هذا العامل الذى يؤثر فى الجنس البشرى اسم (الداتورين) .. وكلما توغلت الأرض المندفعة فى الفضاء فى ذلك النطاق السام ؛ اشتد فعل (الداتورين) .. وسرعة ظهور الأعراض فى مناطق دون غيرها إنما هو سبق مؤقت .. وإن هى إلا بضع ساعات حتى يغمر البلاء أرجاء

العالم .. بداية بالشعوب المتأخرة ثم الأكثر حضارة .. فكانت ضرباته الأولى فى الشعوب الجنوبية ، بينما ظلت الشمالية فى مأمن بعض الوقت .. »

ثم تناول برقية من البرقيات المكوَمة أمامه وقال :

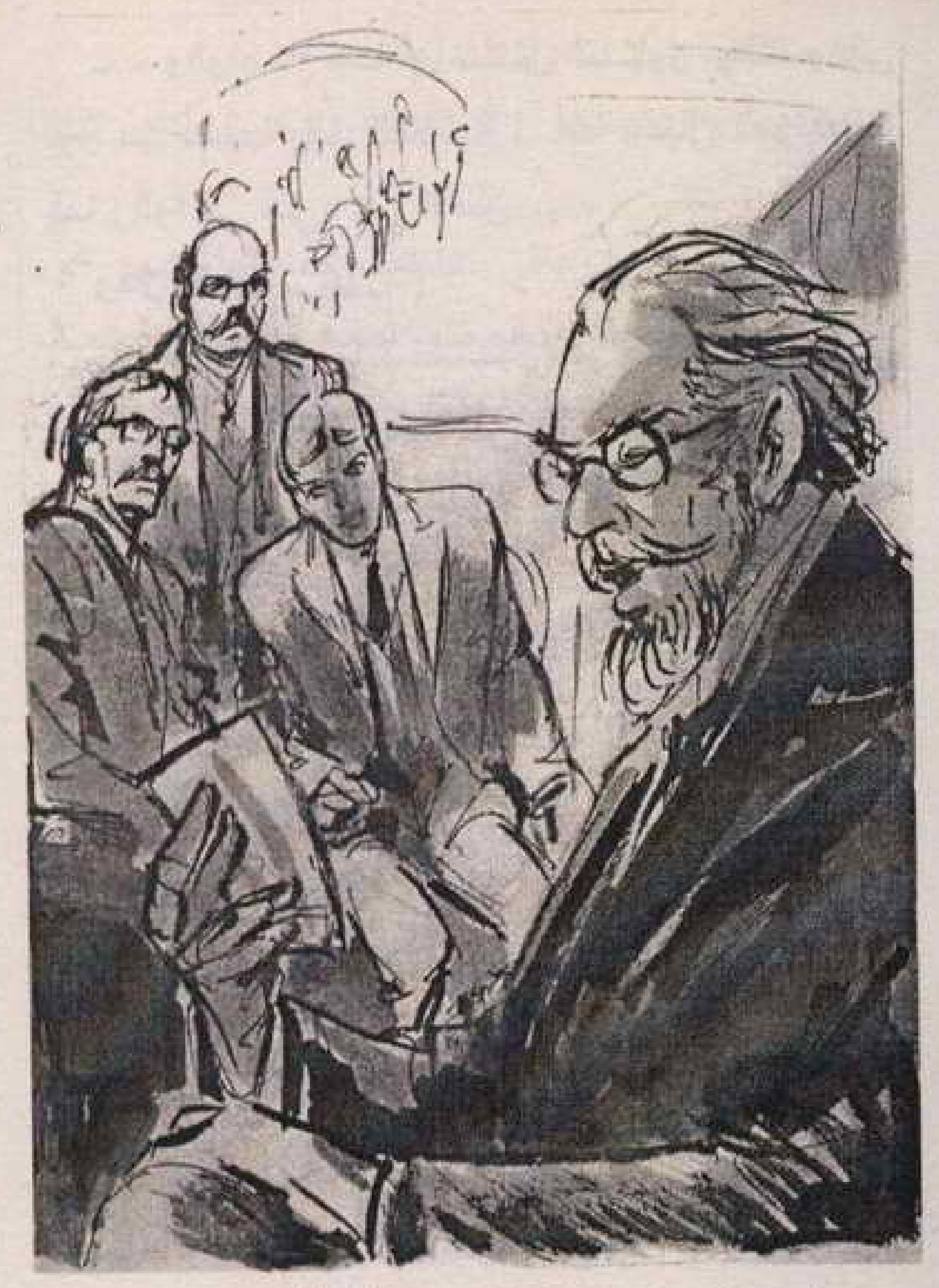
ـ « (مرسيليا) فى التاسعة والنصف صباحًا ، إنها أول برقية تلقيتها » :

« لقد تعرَضت المقاطعة بأكملها الليلة الماضية لحالة من الهذيان المحموم ، وهناك جو عام من الثورة والعناد .. جثث تملأ الطرقات ، والعمل متوقف ، والفوضى عامة .. »

ـ ثم هذه البرقية بعد أقل من ساعة :

« ازدحمت الكنائس والكاتدرائيات بجموع من الناس الهاربين من الفوضى والوباء ، قلَّ عدد الأحياء .. ليس هناك وسيلة للتفاهم مع هذا الوباء .. فلا توجد آلام بل الفتك مباشرة .. ولا يوجد له علاج أو وقاية .. »

ـ « وهناك العديد من البرقيات المشابهة مع اختلاف الحدَة من (باريس) و(الهند) و(فارس) وكذلك (النمسا) .. »



ثم تناول برقية من البرقيات المكوّمة أمامه وقال :
ـ « (مرسيليا) فى التاسعة والنصف صباحًا ، إنها أول برقية تلقيتها » !!

- « والواضح هنا أن سكان السهول والشواطئ أول من أصيب بتلك الكارثة .. أما سكان المرتفعات فما زالوا فى شىء من الأمان .. »

وقال اللورد (جون) :

- « ما يحيرنى يا (تشالنجر) هو هدوؤك وضحكك، وأمامك كل هذه البرقيات التى تنعى إليك العالم .. هل تحتمل موت عالمى بالجملة ؟ إنه أمر شنيع .. »

فقال (تشالنجر) :

- « لا تنس أن هذا السمَ قد شملنى أنا أيضًا .. وشمل بعض أجزاء من عقلى وأعصابى ، وأفقدنى السيطرة عليهما تمامًا ، فهذا عن علة الضحك .. أما ما تشعر به من خوف وذعر لهذا الموت الجماعى فمبالغ فيه ، فإن الشعور بالوحدة هو الذى يسبب هذا الذعر من الموت .. فلماذا إذن الخوف من مصير سوف يواجه الجميع ؟ »

فسأله (سمرلى) :

- « وماذا تنوى أن تفعل ؟ »

فقال (تشالنجر) على الفور :

- « هيًا أولاً لتناول الغداء .. »

ونهض (تشالنجر) فى هدوء وسكينة وكأن شيئًا لم يكن :

- « هيًا بنا يا رفاقى .. لنتمتع حقًا بغداء شهى .. »

أما زوجته الحنون فلم تكن تمانع فى مغادرة العالم ما دام ذلك مع زوجها الحبيب .. فلم تفقد شيئًا من اتزانها ، مع علمها التام بالموقف .

وبدأت ألحظ أعراضًا غريبة فيما بيننا ، فكانت هناك فترات من شرود الذهن مع الانفصال التام عما يدور حولى ، وبرودة تجتاح أطرافى .. هل الموت وصل إلينا ؟

أما الآخرون ، فإن (سمرلى) لم يظهر أى اختلاف فى الطباع أو التصرفات ، أما عن اللورد (جون) فكان يعانى ألمًا فى عينه على ما يبدو ..

أقبل (أوستن) يعرض علينا خدماته .. فاستوقفه (تشالنجر) قائلاً :

- « (أوستن) .. »

- « نعم يا سيِّدى .. »

- « أود شكرك لمساعدتى طوال هذه السنين ! »

ـ « عفوًا .. هذا واجبى .. »
ـ « (أوستن) .. ربما كانت نهاية العالم اليوم .. »
ـ « اليوم ؟ متى بالتحديد ؟ »
ـ « ربما قبل المساء .. »
ـ « حسن أستاذى .. »

وانصرف فى منتهى الهدوء ، أما (تشالنجر) فقال لزوجته :

ـ « هل تهابين الموقف ؟ »

فنظرت إليه فى مودة وقالت :

ـ « هل هناك شىء من العذاب سنعانيه ؟ »

ـ « كلاً يا عزيزتى .. إنه لا يتعدى استنشاق بعض من الغاز الضاحك فى عيادة طبيب الأسنان(*) .. »

والتفت إلى (سمرلى) وقال له :

ـ « إننى أرفض الأخذ بشىء من نظرياتك المادية بأننا سوف نتحول لكمية من الماء وقبضة من الأملاح .. كلاً .. هناك شىء يستعمل المادة لكنه ليس منها .. شىء ينغلب على الموت ، والموت لا يناله .. »

(*) كان التخدير وقتها يعتمد على (أوكسيد النتروز) الغاز المضحك ..

فقال (جون) :

ـ « أشعر بطمأنينة أكثر لو رقدت رقدتى الأخيرة وبندقيتى بجوارى .. على غرار أسلافنا بدفن موتاهم فى دروعهم وبسيوفهم .. ما رأيك يا أستاذ ؟ »

وأجاب (سمرلى) :

ـ « أنا من مواطنى القرن العشرين ، وأود أن أموت كأى رجل متمدن وعصرى ، كما أننى مسن عجوز .. لست بحاجة لمزيد من الحياة ..

أواثق يا (تشالنجر) بأنه لا يوجد ما نعمله ؟ »

ـ « إن كنت تعنى الإنقاذ التام .. فالجواب لا ! أما إذا كنت تعنى إرجاء الكارثة حتى نرى النهاية أمامنا ؛ فقد اتخذت بعض الخطوات .. »

ـ « الأوكسجين ؟ »
ـ « نعم .. (الأوكسجين) .. »
ـ « أيجدى فى حالة تسمم الأثير المحيط بالكرة الأرضية ؟ »

ـ « كل منهما صورة مخالفة من صور المادة ، فعلاقة (الأوكسجين) بـ (الأثير) كعلاقة خفاش

الليل بالغاز .. هل يمكنك الدفاع عن هذا يا سيد (تشالنجر) ؟ »

- « بالطبع يا (سمرلى) .. إنهما متخالفان كمادة ، لكن غازًا كـ (الأوكسجين) قد اختص بزيادة حيوية الأجسام .. ومضاعفة قوة المقاومة فيها .. لجدير بأن يحدّ من نشاط هذا السم الأثيرى المعروف (ديتورين) .. »

عقب (جون) قائلاً :

- « هل كل منا سيمسك بإحدى هذه الأنابيب ويمتص (الأوكسجين) كما يفعل الرضع بزجاجات اللبن ؟ مستحيل .. فلن أفعل شيئًا من ذلك .. »

- « لماذا ؟ لقد طلبت من زوجتى أن تحوّل مخدع نومها إلى حجرة محكمة الأقفال والنوافذ ، وبذلك لا يتسرب إليها أى شىء من الخارج .. »

- « تبًا لك يا (تشالنجر) .. أتحسبك بهذا قد منعت الأثير من الدخول لحجرتك بسد فتحاتها ؟! »

- « كلا .. بل لأمنع (الأوكسجين) من التسرب للخارج وبذلك نستفيد بأكبر كم منه .. فإذا أشبعنا جو الغرفة بنسبة عالية مقننة منه .. فسنظل مالكين لحواسنا .. إننى أحتفظ بأسطوانتين ، وأنتم معكم ثلاث .. »

- « وكم من الوقت تكفى ؟ »

- « لا أعلم ، فسوف نتأخر فى فتحها لحين تمكن الأعراض منا بشكل واضح .. وعلى كل حال هذا سوف يرجئ المصيبة من ساعات إلى أيام ، وبذلك تكون لنا الفرصة نحن الخمسة فى مشاهدة المصير المحتوم الذى ينتظر العالم والبشرية ! »

« هيّا ! وكفى ضياعًا للوقت ، هلا ساعدتمونى فى نقل الأسطوانات إلى الغرفة ؟! »

★ ★ ★

٣ ـ الطوفـــان ..

اتجهنا جميعًا إلى الغرفة التى اختيرت لتكون مسرحًا لتجربة لن تُنسى ، وكانت الغرفة لا تتجاوز العشرين قدمًا مربعًا ، وفعلاً قد أحكم إغلاق النوافذ وسدّت الثغرات ، وكذلك سوف يكون حال الباب إذا ما تم غلقه ..

وتحتل الأركان الأربعة للغرفة أربعة أصص كبيرة الحجم ، يحوى كل منها شجيرة مورقة ، فهى الطريقة المثلى والسريعة للتخلص من غاز ثانى أوكسيد الكربون الزائد .

وكانت النوافذ من النوع المستطيل ، وكانت تطل على نفس المنظر الطبيعى الذى تطلّ عليه غرفة المكتب .. عجبًا لهذا العالم !

لا يوجد ما يدل على توقع حدوث أى اضطراب فى الجو ..

ما هذا ؟ إنه رنين جرس الهاتف .. يا له من

مزعج ! لم تنقطع المكالمات التليفونية لحظة واحدة .. وكان (تشالنجر) يعود بعد كل مكالمة بأخبار وتفاصيل جديدة ، وكانت كلها تؤكد أننا بصدد كارثة فادحة المصاب ..

إنه طوفان يأتى الأرض من أطرافها متجهًا من الجنوب نحو الشمال ، فقد غمرت الكارثة شمال (إفريقيا) و(البرتغال) و(أسبانيا) ، تاركة سكانها فى فوضى ، بين غيبوبة الموت والقتال العنيف .

أما بقية بلاد العالم ، فقد ناشدت برقياتها النصح والإرشاد ، وخير ما يمكن اتخاذه من إجراءات لمحاولة تخفيف الوضع على الأقل ..

وبمتابعة الهيئات العلمية ، وُجد جو عام من الحيرة شمل علماء الفلك ورجال العلم .. فهم لا يدرون سببًا لهذه الكارثة .. لقد خرج الأمر من أيديهم وتجاوز الوضع حدود العلم الإنسانى وسيطرته .

ومع ذلك كله .. فقد رأيت من النافذة مربية شابة تدفع أمامها عربة أطفال صغيرة ، وتجر بيدها الأخرى طفلاً ثانيًا ، وكانت هناك الأدخنة المتصاعدة

من مداخن البيوت الصغيرة والأكواخ المتناثرة ، دالة على روح الاستقرار لهذه البقعة من الريف الجميل .. وكان العمال قد عاودوا الحصاد بعد تناولهم الغذاء .. أما لاعبو الجولف فبهدوء ومرح شديدين انتشروا يتابعون مبارياتهم فى الميدان .

وتعجبت مما يسود هؤلاء جميعًا من عافية وهدوء ، وما يحيطنا نحن من ذعر وأعراض مختلفة ، وتساءلت بدهشة :

- « لماذا تبدو عليهم الصحة والعافية ؟ »

فسألنى سعادة اللورد (جون) :

- هل لك فى لعبة الجولف ؟

فقلت لا ، فقال :

- « إنهم ينسون الدنيا بما فيها وتوجه كل حواسهم لهذه اللعبة .. »

وبينما نحن نتابع تلك اللوحة الهادئة ، لاحظت أن بعض لاعبى الجولف يركضون مسرعين نحو أبنية النادى ، وظننت أن شيئًا من الأخبار المزعجة قد وصل إليهم ..

لكننى فوجئت بالمربية تعود أدراجها ، وقد بدا عليها الاهتمام وشىء من الألم .

يا له من يوم مشمس ومشرق لانتهاء البشرية !!

وتنبهت لصوت (تشالنجر) وهو يقول :

- « (مالون) .. تليفون لك .. »

سمعت (ماكاردل) رئيس التحرير يخاطبنى :

- « (مالون) ؟ (مالون) .. إن لندن الآن تعانى أمورًا هائلة .. الموت يجتاح الناس بالألوف .. بالله عليك ناشد البروفيسور (تشالنجر) إن كان يملك شيئًا لإنقاذ الموقف .. »

وكنت أعلم ردّ أستاذى بهذا الشأن ، فقلت له :

- « لا يستطيع (تشالنجر) فعل أى شىء .. فهى كارثة عالمية لا قبل له بها .. وهو هنا يرجئ الموضوع ببعض (الأوكسجين) .. »

فصاح (ماكاردل) بجنون :

- « (الأوكسجين) ؟ الإدارة هنا لا تُحتمل .. الفوضى تعم أرجاء المكان ، وأغلب الموظفين قد فقدوا وعيهم ، ثم إنه لا يوجد متسع من الوقت للحصول على ما يكفى منه .. »

- « إن كنت تريد .. فيجب التحرك بسرعة ، لماذا لا تسعى بنفسك للحصول على ..... ؟ »

صاح مقاطعًا :

- « أشعر أننى لست على ما يُرام .. والمنظر هنا من نافذة مكتبى لا يشجع على مجرَّد المحاولة ، إن مئات الناس ممددون على الإفريز فى الشارع ، كما أن حركة المرور قد توقفت تمامًا .. وكذلك ..... »

وبدأ صوته يذهب ويبعد شيئًا فشيئًا حتى لم أعد أسمعه أو أتبين معالمه ، وفجأة سمعت صوتًا عنيفًا كأن شيئًا قد ارتطم بالأرض ..

- « مستر (ماكاردل) ! (ماكاردل) ! »

وضعت سماعة التليفون مع ثقتى بعدم سماعى هذا الصوت مرة أخرى .

وبطريق عودتى للغرفة ، شعرت بشىء يغمرنى كأننى على شاطئ البحر ، وفجأة أحسست بأن الحياة تنتزع من جسدى فى هوادة ورفق .. كأن أحدًا قد أطبق على عنقى وجثم على صدرى ، وأذنىَ - إن بهما شيئًا - لم أعد أعى ما هو ..

واختل توازنى وقاربت على السقوط لولا تشبثى بالحاجز ..

وتمكنت من صعود أول درجة فى السلم .. وإذ بـ (تشالنجر) يحمل زوجته فاقدة الوعى ، صاعدًا بها فى الدرجات بسرعة ..

هل أتمكن من الوصول إلى حصننا المنيع ؟ ووجدتنى أجمع شتات نفسى ، حتى تمكنت من الصعود فعلاً .. وهنا سحبنى أحدهم لداخل الغرفة ، تبينته فيما بعد ، اللورد (جون) ، وكنت أنا ومسز (تشالنجر) لا نقوى على الحركة أو الكلام ..

اقترب (تشالنجر) من أسطوانة (الأوكسجين) واستنشق منها أنفاسًا عديدة متلاحقة .

وسرعان ما استجمع قواه وصاح فجأة :

- « إننى على صواب ! لقد أفلح (الأوكسجين) » ، وعاد لنشاطه المعهود ، ودنا بطرف الأنبوبة من أنف زوجته ، ولم يمض كثير من الوقت حتى بدأت تتحرك قليلاً ، ثم اعتدلت فى جلستها ..

وتحرك (تشالنجر) تجاهى ، وقرب طرف الأنبوبة من وجهى ، وإذا بى أعود للحياة من جديد ، وشعرت

بسعادة غامرة .. حقًا إنها حياة مؤقتة .. ولكن لها مذاقًا خاصًا .. خاصًا جدًا ..

وتتابع استنشاق (الأوكسجين) من بعدى إلى الأستاذ (سمرلى) ، الذى كان ـ على ما أعتقد ـ فاقدًا للوعى هو الآخر ، لكنه استجاب سريعًا وأخذ يحرك يديه كمن لا يصدق نفسه ..

أما اللورد (جون) .. فكان آخر من استرد نشاطه وحيويته ..

تثاقلت مسز (تشالنجر) قائلة :

ـ « لقد عانيت كثيرًا يا (جون) وأنت تحاول إنقاذى إعادتى للحياة مرة أخرى ، فقد كنت معرضًا للهلاك .. كان جديرًا بك تركى .. »

وهنا قاطعها (تشالنجر) بصوت يقطر عطفًا وحنانًا :

ـ « عشنا معًا كل هذه السنين ، فلماذا يسبق أحدنا الآخر ؟! ستكون لحظة الفراق مؤلمة ، حتى لو كان الفارق بين عمرينا بعض دقائق .. »

ونظر إلى (سمرلى) واستأنف الحديث :

ـ « عزيزى (سمرلى) .. علك الآن قد اقتنعت وزالت شكوكك .. »

ثم مد يده وأغلق صمام الأسطوانة ، واستطرد يقول :

ـ « لقد تشبع جو الغرفة ، وأعتقد أننا الآن جميعًا بحالة جيدة .. ولكن علينا أن ندخر منه قدر المستطاع .. »

عاد الصمت يخيم على الغرفة .. فقد أحسسنا بشىء من التوتر العام ، حتى همست مسز (تشالنجر) بصوت متقطع :

ـ « أغيب عن الوعى مرة أخرى ! »

وسرعان ما فتح (تشالنجر) صمام (الأوكسجين) وهو يقول :

ـ « أنت الآن يا عزيزتى بمثابة الفأر الأبيض لجماعتنا هذه ، فمع بداية اختراع الغواصات .. كانوا يقتنون بكل غواصة فأرًا أبيض من النوع الأليف ، إذ يستشعر فساد الجو قبل طاقم الغواصة ، وبهذا يسارعون بتنقية الجو .. »

ـ « أيكفى هذا ؟ أحسبك تشعرين الآن بتحسن .. »

ـ « نعم .. شكرًا زوجى الحبيب .. »

- « حسن .. بتلك الطريقة يمكننا تقدير ما يكفينا ويلزمنا من الغاز ، وبالتالى إلى أى مدى سنصمد .. »

فانطلق اللورد (جون) :

- « وهل هذا يهم ؟ سواء طالت أو قصرت المدة ، فالنهاية واحدة ومعروفة .. إننى أرى أن نتلو صلواتنا ، ثم نغلق صمام أسطوانة (الأوكسجين) ، ونفتح النافذة على مصراعيها لنواجه مصيرنا بشجاعة وتحدٍّ .. »

وهتفت الزوجة :

- « حقًا ! لماذا لا نفعل ذلك يا (جورج) ؟ »

واحتج (سمرلى) قائلاً :

- « أعترض وبشدة .. »

والتفت إلىّ (تشالنجر) وقال :

- « ما رأى صديقنا الشاب ؟

- « أتمنى أن نبقى حتى النهاية .. »

- « أنا من رأيك .. »

فهدأت زوجته مرددة :

- « إذن .. سأظل معك للنهاية .. »

- « آسف .. » قالها اللورد (جون) ثم أعقب :

- « معكم حتى النهاية ، ما قصدت سوى ...... »

ونهض (جون) من مقعده ، وهو يكمل كلماته ، وإذا به يصرخ وقد طالعت عيناه النافذة :

- « (تشالنجر) ! السائق ! »

- « ماذا تعنى ؟ »

- « لقد مات ! إنه ممدد بجانب السيارة ! »

- « فقال (سمرلى) :

- « إياكم ومحاولة إحضاره .. إن ذلك يهدر كمية كبيرة من (الأوكسجين) .. فضلاً عن أننا لا نملك سلامة من سنحضره .. »

صاح اللورد (جون) متأسفًا :

- « الطيور .. الطيور أيضًا قد تساقطت فى أرجاء الحديقة ! »

وحمل كل منا مقعدًا له بجوار النافذة نرقب ما يحدث ..

إنه نشيط جدًا ذلك الموت .. فلم يترك حيًا فى العالم ..

وتجاوزت عيناى فناء الدار ، فرأيت فى نهاية الحقل جماعات من الفلاحين قد تفرقت جثثهم ممددة هنا وهناك .

وها هى ذى .. نعم هى ..المربية الشابة كانت ملقاة على الأعشاب ، وإلى جوارها كومة بيضاء علها الرضيع الذى كان بالعربة ، وبجانبهما الطفل الآخر الذى كانت تمسكه .

وهناك عربة ركوب وقد تهالك جوادها فى مكانه وتدلى السائق من مقعده ، وكان الباب مفتوحًا ويبدو أن بداخلها ركابًا أيضًا .

واكتملت الصورة بلاعبى الجولف بالتل ، ممددين فى أرجاء الملعب ، ممسكًا بعضهم بالمضرب ، وبعضهم الآخر بجعبة المضارب .

حقًا كأنها صورة ، ليست بها حركة واحدة ، مع خلوّ السماء من الفراشات والطيور التى نادرًا ما يخلو منها الجو فى مثل ذلك اليوم المشرق .

ومرّت عينى بالصورة مرة أخرى من نهايتها البعيدة مرورًا بالجولف ، ثم العربة ، فالمربية ، وأخيرًا فناء البيت والسائق ، لتعود داخل الغرفة .. وهنا



وها هى ذى .. نعم هى .. المربية الشابة كانت ملقاة على الأعشاب ، والى جوارها كومة بيضاء علها الرضيع الذى كان بالعربة ..

شعرت بوجود زجاج النافذة الرقيق الذى يفصلنا عن هذا الهلاك ويحول دون مشاركتنا فى تلك اللوحة ، هذا بفضل بُعد نظر (تشالنجر) وسعة علمه ، فغدونا عودًا أخضر وسط يابسة ..

قطع علىَّ استغراقى .. صوت (تشالنجر) :

- « هناك منزل يحترق ! »

فسأل (سمرلى) :

- « هل يمكنك استخلاص شىء من هذه الحرائق ؟ »

وابتسم (تشالنجر) قائلاً :

- « طبعًا .. من الناحية العلمية ، هذا يعنى أن كمية (الأوكسجين) الموجودة فى الجو لم تتغيَّر .. وأن سبب الكارثة هو الأثير المحيط بالأرض والطبقة التى تعلوها .. »

- « انظروا جميعًا ! قمة تل (كراوبرو) ، توجد نار هناك ، إنها أبنية نادى الجولف ! »

وهتف (جون) :

- « ساعة الكنيسة ! إنها تدقّ ، إن الإله قد قيض لها البقاء بعد مبتكرها .. يا لها من فلسفة ! »

وصاح من جديد :

- « دخان يتحرّك ؟ يا إلهى .. إنه القطار ! »

وقال (سمرلى) :

- « إلى متى سيظل مندفعًا فوق القضبان الحديدية ؟ هناك احتمال من ثلاثة : أن ينفد وقوده حتّى يسكن ، أو يخرج عن قضبانه وهو يجتاز أحد المنحنيات .. أو ..... »

وسكت فجأة ، لأننا أدركنا الاحتمال الثالث .. رأينا قطارًا آخر يحمل أطنانًا من الفحم يقف ساكنًا .. على نفس الخط .

كان التصادم فظيعًا ، وما هى إلا لحظة حتى أصبحت القاطرة وعرباتها كومة من الحديد والأخشاب ، وانتشرت ألسنة النار ، وصرخت مسز (تشالنجر) :

- « ربّاه .. يا للركاب المساكين !! »

- « أى ركاب يا زوجتى ؟ أنسيت ما أصبحوا عليه ؟ هم لا يختلفون عن كتل الفحم التى اصطدموا بها ، أو التى سيتحولون إليها بعد قليل .. »

وأكمل (تشالنجر) :

- « لقد تكرر هذا المشهد فى جميع بقاع العالم .. بالإضافة إلى السفن والمراكب الشراعية ، سيظل المحيط الأطلنطى قرنا كاملا تطفو فوق أمواجه بقايا هذه السفن .. »

وتذكرت فجأة عمال المناجم .. الذين دفنوا بين طبقات الأرض .

وقال (سمرلى) :

- « لو كتب للبشرية أن تعيش على الأرض مرة أخرى ، فسيحار علماء (الجيولوجيا) والحفريات عندما يجدون هياكل هؤلاء الرجال .. »

وأخيرًا نطق اللورد (جون) :

- « هل لى من سؤال ؟ كيف يعود الجنس البشرى مرة أخرى ؟ »

فرد (تشالنجر) عليه قائلًا :

- « ألم تكن الأرض خالية من قبل ؟ »

- « بلى .. »

- « ثم أصبحت مكتظة بالبشر تبعًا لقوانين وأحكام تسمو فوق إدراكنا ؟! لِمَ لا يتكرر الشىء نفسه ؟! »

فقال (سمرلى) :

- « ربما أخطأت هذه المرة يا صديقى (تشالنجر) .. »

- « لم أخطئ .. فأنا أعنى ما أقول .. »

فقال (سمرلى) :

- « كنت أظنك متدينًا .. أم أنك تستجيب أخيرًا لنظريات الماديين ؟ »

احتد (تشالنجر) قائلًا :

- « تخلط دائمًا بين الدين والعلم وتحاول أن .... »

هنا تدخل اللورد (جون) :

- « أهو وقت النزاع والمجافاة أيها السادة ؟! ماذا يهم إن كانت البشرية ستعود للأرض أم لا ! على الأقل لن يحدث هذا ونحن أحياء .. »

فقاطعه (تشالنجر) :

- « إن العالِم يجب ألا يرتبط بزمان أو مكان ، فيجب أن يعمل العقل العلمى لآخر لحظة من الحياة ، ولا يثنيه أى شىء .. حتى لو كان هذا الشىء هو الموت .. »

« هل لديك أية ملاحظات عزيزى (سمرلى) ؟ »

فقال (سمرلى) :

- « أوافقك .. تمام الموافقة .. »

وهنا تابع (تشالنجر) :

- « إن العقل العلمى المثالى يملكه رجال - يصفهم البعض - بقاهرى الطبيعة .. »

فقاطعه اللورد :

- « فى حالتنا تلك .. ينعكس الوضع ، وتكون الطبيعة هى قاهرة الرجال .. »

فقال (تشالنجر) مؤكدًا كلامه السابق :

- « إن انتصار الطبيعة هذه المرة لن يكلفنا سوى تأخير الحياة لبضعة ملايين من السنين .. »

- « ماذا تقصد ؟ »

- « تمهَّل يا سيِّدى .. إن الحياة النباتية ما زالت حية وقائمة ، سواء على سطح الأرض أو فى المستنقعات والبحار ، ولو تذكَّرت الحيوان الأول ذا الخلية الواحدة - الذى هو أساس هذا العالم الذى هلك ولم يبق منه سوانا - فستجد أن ظهور الإنسان مرة أخرى أمر مؤكَّد ! »

وسألته :

- « أنسيت هذا السمّ ؟ أليس قادرًا على إفناء الحياة مرة أخرى ؟ »

ابتسم قائلاً :

- « ومن أخبرك أنه سيستمر ؟! فربما كان اندفاع الأرض فى الفضاء يخرجها من هذا النطاق السام .. »

ثم أضاف :

- « أعتقد أنه من السهل على الأرض اجتياز هذه المحنة ، والدليل على ذلك هو احتياجنا لقليل من (الأوكسجين) ، وكذلك وجود ألسنة النيران المتصاعدة .. وهذا أيضًا يؤكِّد عودة الحياة الحيوانية من جديد .. »

صاحت مسز (تشالنجر) :

- « لقد عاودنى الصداع مرة أخرى ، وأصبح الجو حملاً على صدرى .. »

فنهض (تشالنجر) مسرعًا :

- « فلنغيره فورًا ! »

وفتح صمام الأسطوانة ، وقال :

- « لقد قاربت على الانتهاء .. »

سأل (سمرلى) :

- « استغرقت كم ساعة تقريبًا ؟ »

نظر (تشالنجر) لساعته وقال :

- « ثلاث ساعات ونصف الساعة .. »

- « كم الساعة الآن ؟ »

- « الثامنة .. وبالقياس فلن تنتهى قبل التاسعة من صباح الغد .. »

فقال (جون) :

- « هل نشاهد الشروق مرة أخرى ؟ »

فردَ عليه (سمرلى) :

- « شروق لنا .. وحدنا ! »

استعمل (تشالنجر) الأسطوانة الثانية ، ثم أزاح الغطاء المحكم لفتحة صغيرة بالجدار ، وأدار المروحة الكهربائية بالقرب منها ..

حقًا شعرنا بتجديد فى جو الغرفة ، أعقبته أعراض التسمم من جديد .. فأسرع وأغلق الفتحة بإحكام وهو يقول :

- « لا يستطيع الإنسان أن يعيش على (الأوكسجين) وحده .. »

فسأله (جون) :

- « ماذا تقصد ؟ »

ابتسم (تشالنجر) وهو يوضح كلامه :

- « أقصد الشراب والطعام ، فقد أعددت مطبخى ليقدم لكم أشهى المأكولات ، لكن هذه الكارثة أفسدت كل شىء ، على كلٍّ - فقد احتطت ببعض الطعام الذى يصلح لتلك الظروف .. »

وعلى الفور .. قامت مسز (تشالنجر) بإعداد المائدة لعشائنا الأخير ..

علق (تشالنجر) قائلاً :

- « نحن بحاجة لتعويض وبناء سريعين ، فمن المؤكد أن الانفعالات التى تعرضنا لها كانت عاملاً فى اضطراب جزيئات أجسامنا .. »

فقلت :

- « أحسب أن تلك الانفعالات تحد الشهية .. »

ضحك (تشالنجر) عاليًا وقال :

- « إن ما أخبرتك به هو الحقيقة العلمية الوحيدة ، وما عدا ذلك هو خيال المؤلفين للقصص .. يا عزيزى .. »

- « ألهذا تكثر الولائم فى حالة الوفاة عند القرويين ، على مستوى العالم كله ؟ »

- « نعم .. هذا هو أساس هذه العادة .. »

وأضاف اللورد (جون) :

- « حقًا .. فقد رأيت بنفسى الزنوج فى (إفريقيا) يصطادون (فرس البحر) ثم يلتهمونه كله ، وذلك بعد أن شيعوا جنازة طفل صغير .. »

- « إننا بعشائنا هذا .. نشيع جنازة العالم أجمع .. »

وقالت مسز (تشالنجر) :

- « إننى لا أشعر بحزن على فقد أحد من أولئك الذين رحلوا واستبقونا ، بما فى ذلك أبى وأمى .. أليس هذا غريبًا ؟ »

- « بل طبيعى ما دامت الكارثة عامة شاملة العالم أجمع .. »

اعترضته قائلاً :

- « على العكس سيدى (تشالنجر) فأنا شديد الحزن لوفاة أمى .. وإنى لأتخيلها بشالها الذى لا يفارقها والمنظار والكتاب .. مع أننى سألحق بها بعد قليل ، كم يؤسفنى موتك يا أمى ! »

فتعجب (تشالنجر) من حديثى :

- « أحزين حقًا ؟ إن الفناء العام يكون أخف على النفس من فناء فرد واحد .. »

وقال (جون) :

- « حقًا .. مثل ما يحدث فى المعارك الحربية ، فأى قيمة بعد ذلك لحياة فرد أو مائة وسط هذا كله ؟! »

قالت مسز (تشالنجر) :

- « إننى خائفة جدًا .. ليتنا انتهينا مع من انتهوا .. »

فنظر إليها زوجها وقال :

- « تشجعى يا عزيزتى .. »

وذهبت أتفقد الأمر خارج النافذة .. علّنى أتبين شيئًا فى هذا الظلام الدامس ، وقلت على الفور :

- « إنها تحترق ! إن مدينة (ليوز) تحترق ! »

وتقدَّم (تشالنجر) من النافذة ، وأطرق برأسه عندما شاهد الكتلة المتوهجة ، وقال :

- « كلا ! إنها مدينة (برايتون) .. »

وتذكَرت جريدة (الجازيت) التى أعمل بها ، و(ماكاردل) ، فلم ولن يكون هناك أثر صحفى لكل هذا ، مع أنه ما من صحفى فى العالم تعرض لمثل هذه التجربة من قبل ، وشعرت برغبة فى تسجيل ما حدث ويحدث ، لكنى فجأة تذكَرت ـ لمن أكتب ؟

وعلى الفور تذكَرت كلمة (تشالنجر) ، فلماذا لا أحذو حذوه وأنجز عملى فى خدمة الصحافة حتى النهاية مهما كانت النتائج ؟

أعتقد أنه لا سبيل للنوم فى مثل هذه الليلة ، فأخرجت قلمى وأوراقى ، أسجل أعظم كارثة حلت بالجنس البشرى ، وبذلك ظهرت هذه الوثائق ..

* * *

٤ - الموتى ومذكراتهم ..

لقد دونت كل ما حدث فى ذلك اليوم ، معتمدًا على غريزة الصحفى ، مع علمى بأن أحدًا لن يطالعها .. فهى حقًا .. مذكرات ميت ..

وتذكَرت كلمة البروفسور (تشالنجر) عندما قال :

- « ليست مأساة أن نهلك ونلحق ببقية الجنس البشرى ، إنما هى أن نبقى أحياء فى هذا العالم بعد أن فارقه الجميع .. »

كم هو بليغ وحكيم ! ولكن لا مجال لحدوث مثل هذه المأساة ، فإن أسطوانة (الأوكسجين) الثانية قاربت على النفاد ..

بدأت محاضرة علمية هائلة ، بصوت جهورى بليغ .. استغرقت ربع الساعة ، كان يلقيها (تشالنجر) ، وكان الأستاذ (سمرلى) أشدنا اهتمامًا .. أما (جون) فكان يرقب ما يدور أمامه .. بينما تمدَدت مسز (تشالنجر) فى مقعدها الوثير ..

أما موضوع المحاضرة فهو بعض الميكروبات والحيوانات ذات الخلية الواحدة ، وكان قد أعدها منذ يوم مضى ، فأخذ يفحصها بوساطة المجهر ..

وهتف فجأة :

- « (سمرلى) ! إنها تتحرك .. إنها حيّة ! »

فتساءل (سمرلى) دون أن يتحرك :

- « ما هذا ؟ »

- « الأميبا .. ذات الخلية الواحدة .. انظر ! »

ثم قال يخاطبنى :

- « (مالون) .. دع الكتابة وتعال انظر ، ثم دون تلك المشاهدة .. »

نهض (سمرلى) وأعقبه (جون) ، لكنه عقب متهكمًا :

- « من هى تلك الأخرى حتى أهتم بمصيرها .. حيّة أو ميتة ؟ »

غضب (تشالنجر) كثيرًا وأخذ يجهز ردًا لاذعًا .. حتى صاحت به زوجته :

- « عزيزى (جورج) - أعصابك - أرجوك لا تهتم .. »

عاد (تشالنجر) لهدوئه وقال :

- « إن لهذا أهمية بالغة ! »

وعقب (سمرلى) فقال :

- « ألا يعيش هذا الحيوان فى نفس الظروف التى نعيش فيها ، فما العجيب أن يظل حيًا حتى الآن ؟ »

« لو أنها ظلت حيّة وهى بالخارج .. لكان ذلك موضع أهمية .. »

أطرق (تشالنجر) بحزن وقال :

- « حتى أنت يا (سمرلى) .. حتى أنت لا ترى أهمية لتلك الظاهرة ! »

تحمس (سمرلى) وقال :

- « ألا ترانى منطقيًا ؟ »

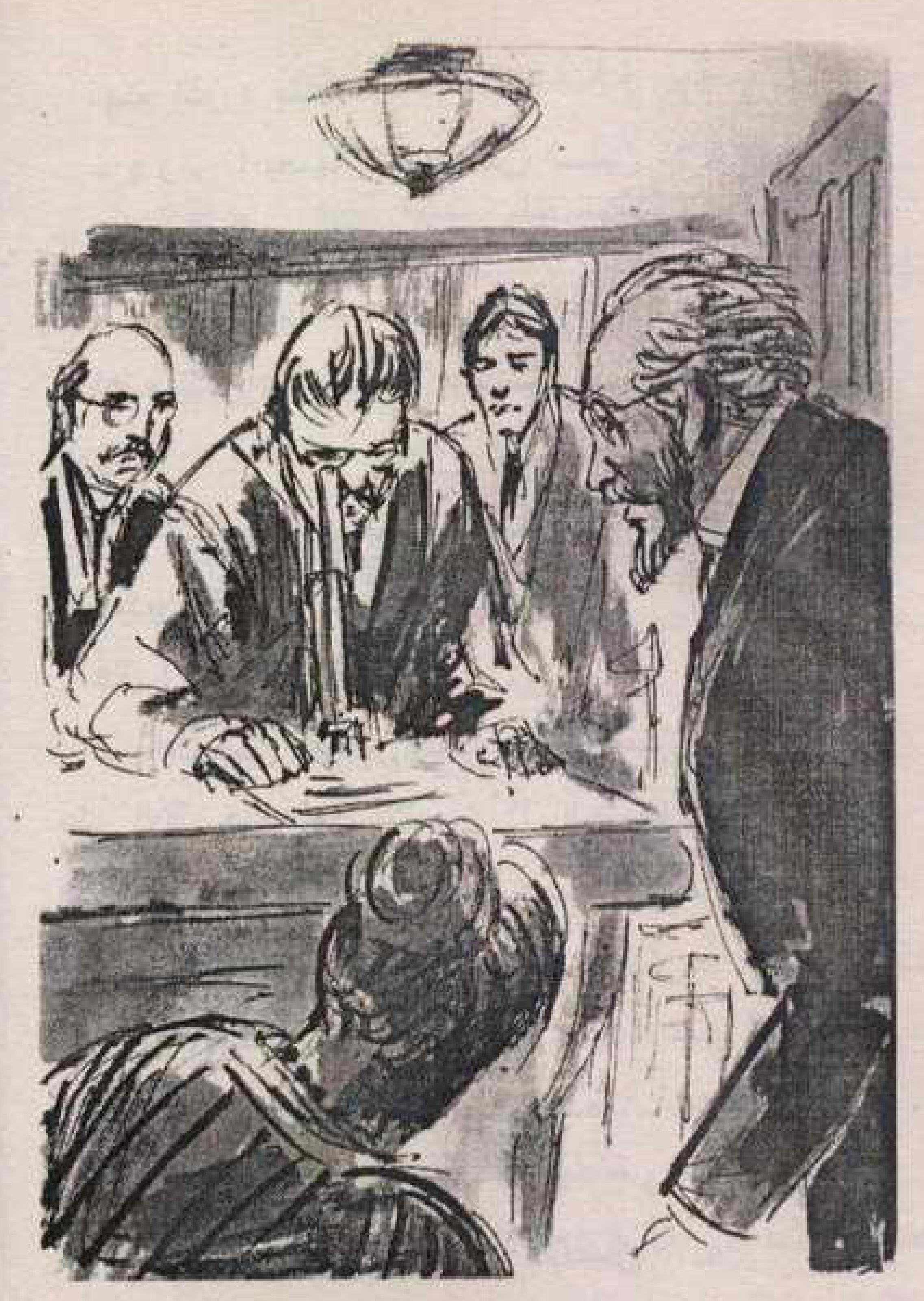
فقال (تشالنجر) :

- « عفوًا .. تنقصك بعض المعلومات .. »

« فقد جمعت هذه العينات بعد ظهر أمس ، وأحكمت عزلها .. بحيث لا يتسرب إليها شىء

من (الأوكسجين) الذى نستنشقه الآن .. »
فسأل (سمرلى) :
- « إذن فهى تعتمد على كمية الهواء المحيطة بها .. »
انطلق (تشالنجر) قائلاً :
- « تمامًا .. »
- « وبعد ؟ »
- « مهلاً .. لا بد أن الأثير السام قد تسرَّب إليها .. ومع ذلك فما زالت حيَّة .. »
صُدم (سمرلى) بالحقيقة ، وقال :
- « تسرب الأثير السام إليها ومع ذلك ..... »
فقاطعه (تشالنجر) :
- « وبالتالى جميع الكائنات المماثلة والموجودة خارج الحجرة فى أنحاء العالم قد اجتازت هذه الكارثة بسلام .. »
وأكمل موضحًا :
- « اعتمادًا على التطور والارتقاء .. فإن العالم لم يصبح ميتًا إلى الأبد كما كنا نعتقد ، مجرَّد بضعة ملايين من السنين .. »

تهكم اللورد بشدَة :
- « ربى ! بضعة ملايين من السنين !! »
فردَ (تشالنجر) :
- « هذه تعتبر لمحة فى عمر الكون .. »
اهتم اللورد (جون) وجلس أمام المجهر وهو يقول :
- « أتلك هى باكورة الجنس البشرى ؟ لم نعد الوحيدين الأحياء فى هذا العالم .. »
قال (تشالنجر) :
- « ألم تكن الأرض خالية من الكائنات الحية ، أو على الأقل خالية من الإنسان ؟! ألم تكن سابحة فى الفضاء العريض ، تغسلها مياه الأمطار تارة ، وتجففها الشمس تارة أخرى ؟ »
« إن الإنسان حديث عهد بوجوده على الأرض ، ولم يخلق هذا الكون من أجله وحده .. »
علَق (جون) :
- « فلمن إذن ؟ إن لم يكن للإنسان .. »
قال (سمرلى) :



اهتم اللورد (جون) وجلس أمام الجهر وهو يقول :
- « أتلك هى باكورة الجنس البشرى ؟ »

- « لا نعرف ، فربما كان لشىء نجهله ، وظهور الإنسان كان مجرَد نتاج فرعى فى أثناء العملية الأصلية الهائلة .. »

كنت أدوَن هذه المجادلة .. حتى صعب علىَ الأمر ، فقد تحولت إلى ما يشبه المناظرة ..

هدأ الجميع بعد قليل ، فقد انصرف (تشالنجر) إلى مجهره ، بينما اتجه اللورد (جون) إلى النافذة .

وكان حريق (برايتون) ما زال متأججاً ، كما ظهرت حرائق أخرى متناثرة هنا وهناك .

ربَت اللورد (جون) على كتفى وهو يسألنى :

- « وأنت أيها الشاب .. ماذا بخلدك الآن ؟ »

فقلت :

- « أفكَر فى بعض العقبات التى لم نجد لها حلاً .. أينتهى ذلك كله إلى هذا المصير ؟ »

- « مثلاً ؟ »

- « (انجلترا) و (ألمانيا) .. تلك المنافسة للسيطرة على الصناعة والتجارة ، أو المشاكل السياسية فى الخليج الفارسى ، أكنت تدرى أن الأمور ستنتهى إلى هذا الحل ؟ »

وأخذت مسز (تشالنجر) فى البكاء ، بينما كان زوجها يواسيها بحنان ، أما أنا فرحت أتخيل أصدقائى ونهاية كل منهم .

استسلمت مسز (تشالنجر) للنوم ، وجلس هو إلى مكتبه يسجل بعض الأفكار ويقلب المراجع العلمية فى سكينة وتروٍ كما لو أنه ما زالت فى عمره بقية تقدر بمئات السنين .

أما عن (سمرلى) فقد بلغ الإجهاد منه مبلغه ، وكان منتظم الشخير .. كذلك استسلم اللورد (جون) للنوم ..

وكم كانت دهشتى من مقدرتهم على النوم فى تلك الظروف !

وبعد أربع ساعات عرفت الجواب ، فقد غلبنى النوم أنا الآخر وصحوت فجأة .. وإذا بها الثالثة والنصف صباحًا .. كيف نضيع كل هذا الوقت من تلك الفترة الوجيزة التى بقيت لنا فى عالم الأحياء ؟!

حقًا .. لقد أفادنى النوم .. وصرت أعظم نشاطًا وحيوية ، وأيضًا استعدادًا لمواجهة نهايتى ..

حتى (تشالنجر) استسلم للنوم .. لكنهم جميعًا ما زالوا مستغرقين فى سبات عميق ..

بدت تباشير الفجر .. حاملة معها موجة باردة ، وانتقلت إلى النافذة ألمح هذا الفجر الأخير ـ كم هو رهيب !!

كون ما يزال موجودًا .. وعالم غير مسكون ، لقد انتهى الجنس البشرى فى يوم واحد ، وها هى ذى الشمس تشرق من جديد ..

وضح النهار ، وتبينت معالم اللوحة مرة أخرى ، هى بعينها لم يطرأ عليها أى تغيير ، ما زال (أوستين) وما زال الباقون ..

وإلى هنا توقفت عن تدوين مذكراتى ، فقد مرت الأحداث بعد ذلك بتتابع سريع لا يمكننى من ملاحقته ، لكنها عالقة بذهنى بجلاء تام ..

وفجأة .. شعرت بألم فى حلقى .. فخطوت تجاه (الأوكسجين) ..... ما هذا ؟

إنها الأسطوانة الرابعة .. وقد أوشكت هى الأخرى على النفاد ، يبدو أن (تشالنجر) ـ فى أثناء نومى ـ قد لجأ إليها .

لكن الألم يزداد ويمتد إلى صدرى ، فأسرعت إلى الأسطوانة الخامسة .. نعم - الخامسة والأخيرة - وفتحتها .

وبدأت مسز (تشالنجر) تئن بصوت مرتفع :

- « (جورج) .. (جورج) .. إننى أختنق ! »

وأجبتها مسرعًا : « اطمئنى يا مسز (تشالنجر) .. لقد فتحت أسطوانة جديدة .. »

بدأ الجميع فى الاستيقاظ هلعين ..

نظر اللورد (جون) بطرف عينيه وقال :

- « الأخيرة ؟! »

- « نعم الأخيرة .. »

- « هل أمضيت كل هذا الوقت فى الكتابة ؟ ألم يغلبك النعاس ؟ »

- « بل غلبنى لمدة أربع ساعات .. »

- « لمن تكتب بحق الشيطان ؟ »

- « لا أدرى .. ربما كان بحكم مهنتى .. »

- « إياك أن تكون قد كتبتها لحيوان (الأميبا) هذا الذى يحتفظ به البروفسور (تشالنجر) فى قواريره ،

ليراها بعد ملايين السنين عندما يرتقى ويصبح إنسانًا ! »

ثم اتجه إلى (تشالنجر) وقال :

- « ما هى مشروعاتك المستقبلية يا أستاذى ! »

وكان (تشالنجر) يراقب المنظر من النافذة ، على حين قالت زوجته :

- « أتشعرون بالبرد ؟ أم أنه شعورى وحدى ؟ »

وأسرعت أقول :

- « بل إننى مثلك .. ومنذ وقت مضى .. »

وصدَّق على حديثنا (سمرلى) ، فقالت السيدة :

- « لا بأس بخمسة أقداح من (الكاكاو) الساخن .. تفضلوا .. فهذا كاف لبعث الدفء فى أوصالنا .. »

يا له من قدح رائع ! يكفى منظر البخار المتصاعد لبعث الدفء ، وتلاشى البرودة من أطرافنا ..

فسأل (سمرلى) :

- « أتسمحون لى بتدخين غليونى قليلاً ؟ »

فأجاب (تشالنجر) :

- « ولِمَ لا ؟ لكم أن تدخنوا ، مع أن ذلك سيضاعف

استهلاكنا من (الأوكسجين) ، ولكن لماذا نحرم أنفسنا من تلك اللذة الأخيرة ؟ »

تلهف الجميع وأشعل كلٌ سيجارته أو غليونه ، وسرعان ما تكاثفت سحب الدخان فى الغرفة ، وعاود (تشالنجر) عملية التهوية .

سأل اللورد (جون) :

ـ « كم بقى لنا ؟ »

أجاب (تشالنجر) :

ـ « تقريبًا ثلاث ساعات .. »

وابتسمت زوجته قائلة :

ـ « أشعر الآن بسعادة كلما قربت الساعة الأخيرة .. »

وقالت لزوجها :

ـ « ألا يجدر بنا أن نصلى قليلاً .. يا (جورج) ؟ »

فرد عليها فى استغراق :

ـ « إن العلم والدين يتقابلان الآن بداخلى ، ومجرد الرضاء بكل ما يأتى به القدر .. لهو صلاة .. »

اعترض (سمرلى) قائلاً :

ـ « هناك فرق بين إسلامى للقدر واستسلامى له ،

أما الرضاء التام فيكون بعد أن أكمل أبحاثى عن المتحجرات الطباشيرية وبعدها أهلاً بالفناء .. »

فقاطعه (تشالنجر) :

ـ « مع أننى كنت أنوى إيداع كافة أبحاثى وتجاربى عن (سلم الحياة) .. فأنا أشعر بكامل الرضا .. »

تدخل اللورد (جون) :

ـ « يبدو أن كلاً منا ترك وراءه شيئًا ناقصًا .. »

ثم ربت على كتفى قائلاً :

ـ « وأنت ـ أيها الشاب ـ ماذا تركت وراءك ولم تكمله ؟ »

فقلت :

ـ « ديوانًا للشعر لم يتم .. »

ثم سألته :

ـ « وأنت .. هل لك شىء لم يكتمل ؟ »

ـ « نعم .. وَعْد لم أنجزه .. »

ـ « وَعْد ! »

ـ « وَعدت زوجتى بالذهاب للتبت لأصيد لها .. »

وقال اللورد (جون) :

- « وأنت مسز (تشالنجر) .. ألا يشق عليك ترك هذا المنزل الجميل ؟ »

فتنهَدت السيدة وقالت :

- « أى مكان يجمعنى و (جورج) يكون بيتى الجميل .. لكنى حقًا آسفة لعدم مقدرتى على ممارسة رياضتى ، والتنزه هذا الصباح .. فإن اللون الذهبى يغمر الكون بأكمله .. »

ومن جديد حملنا مقاعدنا بجوار النافذة نراقب هذه النعمة التى تفلت من أيدينا شيئًا فشيئًا .

قال اللورد (جون) :

- « بدأت أشعر بالضيق .. هل نفدت تلك الأسطوانة بهذه السرعة ؟ »

فقال (تشالنجر) :

- « يبدو لى أنا الآخر أن هذه الأسطوانة ليست معبأة كما ينبغى .. فإن كل أسطوانة تختلف عن الأخرى بما تحتويه من كمية الغاز ، تبعًا لمدى الضغط المستخدم ، وكذلك العناية بمراعاة التعبئة .. »

فقال (سمرلى) :

- « خديعة ! حتى فى لحظاتنا الأخيرة ! يا له من شىء مؤسف ! »

قال (تشالنجر) لزوجته :

- « تعالى بجوارى .. هاتى يديك .. »

قال (سمرلى) :

- « عندى لك كلمة واحدة يا (تشالنجر) قبل أن نمضى .. »

- « تكلم يا صديقى .. »

- « تجادلنا طويلاً .. واحتد بيننا النقاش أكثر من مرة ، فلم يؤثر ذلك على صداقتنا قط ، فلكمْ أكن لك من مودة واحترام .. والآن .. وداعًا .. »

قال اللورد (جون) لى :

- « وداعًا صديقى الشاب .. »

ونهض (تشالنجر) واحتضن زوجته ، ثم مدَ يده نحوى وقال :

- « (مالون) .. من فضلك منظارى المقرَب .. »

وألقى بالمنظار على زجاج النافذة فحطمه ثم أردف :

- « فلنسلم أنفسنا للقوة القاهرة .. »

ومن خلال فتحة الزجاج المحطم .. اقتحمتنا موجات من نسيم بارد .. وأثار هذا دهشتنا ..

وهتف (تشالنجر) :

- « يبدو .. أننا .. يبدو أننا قد عدنا لحالتنا الطبيعية ! »

- « ماذا تقصد يا (تشالنجر) ؟ »

- « إن الكرة الأرضية تسبح الآن وسط الأثير العادى .. لقد جاوزت النطاق السام ! »

- « بعد ماذا ؟ إنه لم يبق من الأحياء سوانا .. »

ورحنا نتبادل النظرات فى حيرة ..

★ ★ ★

٥ - عالم الأموات ..

لست أدرى ... كم من الوقت مر علينا ونحن ذاهلون ، لا نصدق كوننا ما زلنا أحياء .

إن أنفاسنا تخرج ثم تعود إلينا سالمة .. لكن القلق أطبق علينا ، وفقدنا ثقتنا بالمستقبل ..

إن تلك الضربة أقوى وأشد من ضربة الموت الأخيرة التى استعد كل منا لها .

بدأت العلاقة بين الماضى والحاضر والمستقبل تعيد نفسها بترتيب بطىء ، والأفكار برءوسنا أخذت تتحور شيئًا فشيئًا ، وعادت الذاكرة لتفصل بين حياة عشناها ، وتلك الحياة الجديدة التى كتب علينا أن نحياها .

الغريب .. أنه لم يكن أحدنا يشعر بالسعادة .. السعادة لنجاتنا من الموت المحقق .

لقد ذهب كل ما كان حبيبًا إلينا .. ودفن بطيات هذا الطوفان الرهيب .

أصبحت حياتنا تسير وسط مقبرة شملت العالم أجمع ، ثم لن نلبث أن نلقى مصيرنا الواحد بعد الآخر .

وصاحت مسز (تشالنجر) .

- « (جورج) .. إننى خائفة .. خائفة ! »

وارتفع صوتها بالبكاء وهى تردد :

- « ليتك لم تنقذنا .. ليتك تركتنا نمضى مع الآخرين .. »

قال (تشالنجر) مقطبًا :

- « فلنستسلم للواقع .. »

وصاح (سمرلى) :

- « لن أستسلم لشىء بعد الآن .. »

ورد اللورد (جون) :

- « رفاقى الأعزاء .. ما الذى يدعو لكل هذه الحدة ؟ سواء استسلمنا أم لم نستسلم - سيان - إن الأمر يستوى الآن ، وإن أحدًا لن يسألنا رأينا ... أنوافق أم نعترض .... ما الفرق ؟ »

قال (تشالنجر) بصوت خفيض :

- « إنه الفارق بين السعادة والشقاء ... على كل نحن بصدد أمر خارج عن سيطرتنا .. ولا نملك شيئًا سوى أن نقبله على علاته .. »

فسألته :

- « وماذا نفعل وحدنا بهذه الحياة ؟ »

- فأجاب :

- « سنعود ونزاول أعمالنا .. »

فقاطعته :

- « أعمالنا ؟ لم تعد هناك صحف .. فكيف أزاول عملى ؟ »

وقال اللورد (جون) :

- « وأنا ؟ لم يبق لى ما أصيده ، فقد قضيت عمرى فى الصيد والقنص .. ثم انتهيت مثلك يا (مالون) .. »

أما (سمرلى) فقال :

- أين تلاميذى ؟ لمن أحاضر بعد اليوم ؟ »

وابتسمت مسز (تشالنجر) وقالت :

- « أنا أكثركم سعادة ، فما زال بيتى وزوجى معى ، شكرًا لله على أن أبقاهما لى حتى أظل أتابع واجباتى نحوهما .. »

وقال (تشالنجر) :

- « وكذلك أنا ... فلن أتعطل ، فالعلم لم يمت ، بل بالعكس .. إن مثل هذه الكارثة يفتح أمامنا آفاقًا جديدة للبحث والدراسة .. »

وتذكر (تشالنجر) شيئًا فقال :

- « أيستطيع أحدكم تحديد البداية لتلك الكارثة ؟ »

فقال (سمرلى) :

- « صعب جدًا .. إن لم يكن مستحيلاً .. »

- « لمــاذا ؟ »

- « لأنها بدأت فى المشرق ثم فى المغرب ، أعنى أنها لم تحدث مرة واحدة »

فقلت مؤكدًا :

- « إن البرقيات الأولى جاءت من الشرق الأقصى .. »

- فقاطعنى (تشالنجر) قائلاً :

- « هذا لأن الكرة الأرضية لم تتعمق فى الفضاء المحتوى على الأثير السام مرة واحدة ..

« وبالتالى .. فإن المرحلة الخطرة يمكن تحديدها بالوقت الذى عم فيه الخطر الأرض كلها .. »

قال (سمرلى) :

- « حوالى الثالثة .. الثالثة من بعد ظهر أمس .. »

فسأل (جون) :

- « هذا عن البداية .. فكيف يمكن تحديد النهاية ؟ »

فقال (تشالنجر) وهو ينظر لساعته :

- « الساعة الآن التاسعة صباحًا ، وهكذا تكون النهاية قبل ذلك طبعًا .. »

فقلت :

- قبل الفجر .. لاحظت أن الهواء كان رديئًا .. »

وقالت مسز (تشالنجر) :

- إنى أتذكر جيدًا .. فقد عاودتنى أعراض التسمم مرة أخرى قبيل الثامنة صباحًا .. »

فقال زوجها :

- « ما بين الثامنة والتاسعة كانت النهاية ، فقد استغرقت المأساة سبع عشرة ساعة .. »

والتمعت عيناه فجأة وقال :

- هناك سؤال مُلحَ .. هل أنقذ غيرنا ؟ »

وردّ اللورد (جون) :

- جال بخاطرى نفس التساؤل .. »

وعقب (سمرلى) :

- « هل يمكن حدوث ذلك ؟ »
تعجب (تشالنجر) وقال :
- وما المانع ... ؟ لِمَ لا ؟ »
- « مستحيل .. »
- « لماذا ؟ »
أجاب (سمرلى) :
- « لقد كان السم من الشدة بحيث لم يتمكن أحد من النجاة .. »
قلت معترضًا :
- « يمكن هذا فى حالة واحدة ... إن كان هناك من توقع ما توقعه البروفيسور (تشالنجر) فاحتاط له مثلما فعل .. »
ورَد (تشالنجر) :
- « بلا فخر .. هذا الاحتمال بعيد جدًا ، ففى حالتنا اجتمع التفكير الدقيق وبعد النظر وقوة الملاحظة ، وكذلك حسن التصرف ، وهذا قلما يحدث مرتين .. »
تنهد (سمرلى) وقال :
- « إنك بذلك تؤكد أنه لا وجود لأحياء سوانا ... فلمَ السؤال ؟ »

أجاب (تشالنجر) :
- « إنه احتمال ضعيف جدًا »
- « أتقصد أنه ليس لديك رأى محدد ؟ »
قال (تشالنجر) :
- « طبعًا .. »
- لماذا ؟ »
- « ربَما كانت آثار هذا السم ضعيفة بعض الشىء فى المناطق المرتفعة ، فيمكن أن يكون هناك عدد من الناجين فى بلاد (التبت) ، والمزارع المتناثرة فى جبال (الألب) التى تعلو سطح البحر .. »
فقال اللورد (جون) :
- « أنسيتم أنه لا وجود لوسائل المواصلات ؟ فكيف السبيل للبحث عن الأحياء ؟ »
فقال (تشالنجر) معقبًا :
- فعلاً يكاد يكون الأمر مستحيلاً ، فكيف الوصول لهؤلاء إن وجدوا ؟
عاد اللورد (جون) يسأل :
- « هناك ما هو أهم من البحث عن الأحياء .. »

فاهتم (تشالنجر) وقال :

- « ما هو ؟ »

قال :

- « الحالة الطبيعية التى عدنا إليها ، دائمة أم مؤقتة ؟ »

- « ماذا تعنى ؟ »

- « ألا يمكن أن تكون فترة هدنه بين نطاقين سامين ؟ »

فهتف (سمرلى) :

- « ربى ! »

وتقدم (تشالنجر) نحو النافذة وقال :

- أعتقد أن حدوثها لن يتكرر إلا بعد أحقاب طويلة ، إن كان لا بد من تكرارها .. »

احتد (سمرلى) وقال :

- « ماذا لو تكررت ؟ »

ضحك اللورد (جون) قائلاً :

- أقترح أن ننتهز الفرصة لاستنشاق أكبر كمية ممكنة من الهواء النقى .. هيا نخرج إلى الطبيعة .. »

- وهنا صرخت مسز (تشالنجر) :

- « خارج البيت ؟ »

فى هدوء قال لها زوجها :

- « سيان داخل البيت أو خارجه ما دمنا لا نملك (أوكسجين) .. »

وشعرنا جميعًا باليأس والاجهاد ، حتى (تشالنجر) ألقى بنفسه متهالكًا على المقعد لا يتحرك ..

أمسك اللورد (جون) بكتف (تشالنجر) يعاونه على النهوض :

- « هيا بنا أيها الأصدقاء خارج البيت نتفقد ما حدث .. »

وتعاونت معه على رفع (تشالنجر) من مقعده ، ليسترد نشاطه .

هبطنا جميعًا فى السلم و(سمرلى) يقول :

- « أنغادر الحجرة لنرى ما حدث فقط ؟ »

وعقب (جون) :

- « ماذا إذن .. »

- « حقًا وماذا غير ذلك ؟ فقد أصبحنا نملك ثروة ونعيمًا وأسباب رفاهية وكنوزًا وما إلى ذلك ، إنه ميراث هائل ... من الطبيعى ألا يشغلنا شىء بعد ذلك .



وشعرنا جميعًا باليأس والإجهاد ،حتى (تشالنجر) ألقى بنفسه متهالكًا على المقعد لا يتحرك ..

وقالت السيدة :

- « يجب أن نتفقد الخدم .. »

وتوجه الجميع إلى المطبخ ، فوجدنا الخادمة والطاهية على الأرض .

وأسرعت مسز (تشالنجر) وقد ارتسم الحزن على وجهها قائلة :

- « لا يجب أن نتركهما هكذا .. »

فقال (سمرلى) :

- « سنتبع معهما المراسم اللازمة .. »

واعترض (تشالنجر) :

- « ليس الآن .. يكفى الآن نقلهما إلى الفراش .. »

وتعاون الجميع فى حمل كل منهما إلى فراشها .. وتذكر (تشالنجر) فجأة وهتف :

- « (أوستن) ! يجب نقله هو الآخر .. »

وخرجنا حيث كان يرقد (أوستن) ، فقد لاحظ الجميع تخشب الجسد وتحجر العضلات بشكل غريب لم نعهده فى الموتى من قبل ، حتى إن تقلص العضلات قد شد جوانب الوجه وكشف عن الأسنان ، فكأنما ارتسمت عليه ابتسامة ساخرة ..

وكانت نفس الملاحظة على وجهى الخادمتين ، وعلى كل جثة نراها .. وبينما نحن نتفقد تلك الميته الغريبة ، سمعنا مناداة السيدة (تشالنجر) من الداخل :

- « هيا .. إلى غرفة الطعام .. »

فهول الموقف أنسانا أنفسنا ، فلم نذق اليوم سوى (الكاكاو) الساخن .. لهذا بدا اقتراحها مغريًا ، برغم الظروف ..

كان اللورد (جون) أقلنا شهية للطعام وبمنتهى الجدية قال :

- « رفاقى ... لا أدرى نية كل منكم .. لكننى لا أستطيع أن أجلس هنا دون أن أفعل شيئا .. »

أضاف (تشالنجر) :

- « اقترح علينا .. »

- « نخرج للدنيا ونرى ما حدث »

- « لا مانع لدى ... فلنذهب للقرية »

- « القرية ؟ أتريد أن ترى آثار الكارثة على قرية ريفية لا قيمة لها ؟ لن يكون فيها جديد .. »

- « إلى أين نذهب إذن ؟ »

- « (لندن) .. »

وهنا تدخل (سمرلى) :

- « هذا رائع .. ولكن أيمكنك أن تكون واقعيًا أكثر من ذلك ؟ »

نسأل اللورد (جون) :

- « ماذا تقصد ؟ »

- « إن أربعين ميلاً بيننا وبين (لندن) ... أيمكن للجميع قطع هذه المسافة سيرًا على الأقدام ؟ »

قال (جون) :

- « بالسيارة ... لماذا لا نرحل فيها ؟ »

- تردَد (تشالنجر) وهو يقول :

- « إن خبرتى فى قيادة السيارات .. لا تكفى ، ولكنها فكرة رائعة ، سأقود السيارة بنفسى إلى (لندن) .. »

فصاح (سمرلى) :

- « لا .. لن تفعل »

وكذلك صاحت مسز (تشالنجر) :

- « أرجوك يا (جورج) لا تفعل ، إنك لم تحاول القيادة سوى مرة واحدة وكدت تحطمها .. أنسيت ؟ »

ـ « نعم .. لقد حدث ذلك ، لكنه كان لشرود مؤقت فى ذهنى .. »

وتدخل اللورد (جون) سائلا :

ـ ما نوع السيارة ؟

ـ طراز (همبر) ... قوتها عشرون حصانًا .. »

ـ « يا للمصادفة ! لقد قمت بقيادة مثل هذا النوع لمدة طويلة .. »

وأضاف قائلاً :

ـ ما تخيلت يومًا من الأيام أن أقل الجنس البشرى كله معى بسيارة واحدة !! »

فنظرت إليه ، فقال موضحًا :

ـ « أيوجد جنس بشرى سوانا ؟ »

وسأل اللورد :

ـ هل تكفينا السيارة ؟

فرد (تشالنجر) :

ـ « إنها تسع خمسة أفراد .. »

فنهض اللورد (جون) صائحًا وكأنه سيد الموقف :

ـ « هيا يا رفاق .. فلتعدوا لوازمكم .. وسأكون بانتظاركم فى تمام العاشرة ..»

جلس اللورد إلى عجلة القيادة وأنا بجانبه ، بينما جلست مسز (تشالنجر) فى المنتصف تتوسط (سمرلى) وزوجها ، وانطلقت السيارة فى أغرب رحلة قام بها أناس منذ قديم الأزل ..

كانت الطبيعة خلابة فى تلك البقعة من الريف الإنجليزى فى هذا الصباح من شهر أغسطس ، كان منظرًا كفيلا بأن يُنسى الإنسان ما حدث .. لولا السكون المطبق والصمت الفظيع الذى يسود كل شىء ..

إن للحياة رنينًا وصوتًا مميزين ، أحست الأذن بفقدهما ، مع العلم أنها لم تكن تشعر بوجوده ، فقد اعتادت عليه ، مثل ساكنى الشواطئ الذين يألفون هدير الأمواج حتى تصبح وكأنهم لا يسمعونها ، فى حين أنه يكون مزعجًا لمن يسمعه لأول مرة .

أصوات الحيوانات المختلفة ، نباح الكلاب وخوار البقر وطنين النحل والحشرات .. كلها سيمفونية عزف لحياة الريف .

هذا الصمت العنيد ، وألسنة النار ، وأعمدة الدخان التى انتشرت من بعض الأبنية المحترقة وصوت

(موتور) سيارتنا المزعج بعث القشعريرة فى أوصالنا ، وأيضًا حنيننا لعالمنا المفقود .

ناهيك عن الجثث المنتشرة فى كل مكان .. يا لها من معاناة نتحملها نحن ، وضريبة الآلام التى ندفعها لكوننا نجونا !

لعمرى ما حييت لن أنسى تلك الصور .

وعندما امتدت تلك الآثار إلى الجماعات ثم إلى القرى والمدن ؛ أخذ تأثيرها فى أعصابى يخف شيئًا فشيئًا ..

وبتكرار هذه المشاهد المروعة .. اعتادتها عيناى وتذكرت مقولة للورد (جون) عندما قال إن الإنسان ينقبض عندما يرى جثة قتيل تنزف منه الدماء ، لكنه إذا خاض فى ساحة لمعركة ما ، تحوى مشهد الآلاف من الجثث والضحايا ، ذهب عنه الاشمئزاز .

وتنبهت على بكاء مسز (تشالنجر) ، وقبل أن أسألها إيضاحًا .. أدركت الموقف ..

إنها مدرسة ريفية خرج منها التلاميذ من فورهم ، وتبعثرت جثثهم على مشارف الطريق من باب المدرسة إلى المدينة ...

إن جثث الأطفال بالذات تثير بنفوسنا شجنًا وأسى ...، فلعل سماع الأنباء بوقوع الكارثة ، جعل المدرسين يصرفون الصغار إلى منازلهم ... ولكن ... إنه فرار من الموت ... إلى الموت .

وكذلك الحارات .. كانت مكتظة بالموتى .. فى ثياب النوم .. على ما يبدو ، هربًا من الجو الخانق ، وبحثًا عن الهواء النقى .

جاوزت السيارة (ويلز) ... بتلك الأكواخ والبيوت الصغيرة ، وقد كان سكانها يطلون من نوافذها ، علّه البحث عن الأوكسوجين ... خارج جدرانهم ..

كان اللورد (جون) شديد المهارة والفنّ بدنيا القيادة ...، فتفادى من العقبات الكثير والكثير التى كان معظمها من الجثث .

وفى حالة تراكم الجثث فى الطريق ...، كنا نترجل من السيارة لنرفع من طريقها بعض الجثث ، فقد فعلنا ذلك أكثر من مرة .

منظر آخر .. شمل الخادم والأرستقراطى والكلب نعم ! كلهم فى ضربة واحدة ..

رأينا سيارة رائعة الجمال تقف أمـام حانـة ريفيـة ، علهم يقضـون بعض طلباتهم ، وكـان اتجاه السيارة قادمًا من (برايتون) ..

كان ركابها عبارة عن ثلاث نساء فى قمة الأناقة .. وأفخر الثياب ، وكانت إحداهن تحمل كلبًا صغيرًا ، أما قـائد السـيارة ففتـى يبـدو أنـه أرستقراطى يصنـع « المونوكل » على عينه ، وبجواره شيخ عجوز ..

وبجوار باب السيارة سقط خادم الحانـة ، وبجانبـه صينية تناثرت فوقها شظايا الزجاج لأكواب بعددهم .. ويبدو أنه سقط فى طريقه إليهم متجهًا من الحانة ..

« داو يشهام » تلك المدينة التى كانت الأخيرة حتى الآن فى طريقنا ، وبينمـا نحن نغادرهـا ... فوجئنـا بشىء صغير يتحرك من بعيد ...

وهتف ثلاثة منا :

ـ « ما هذا ؟ »

كانت هناك يد بشرية تشير لنا بمنديل أبيض .. لقد شاهدناها جميعًا .

شاهدناها من نافذة بالدور الثانى لمنزل متواضع .. لم يكن حلمًا أو تخيلاً ..

أسرع اللورد (جون) بالسيارة حيث كان المنزل

وهبطنا منها جميعًا ، نتسابق إلى بـاب المنزل حتى الدور الثانى ....

كم نشتاق للحياة !

هنا ... إنها هنا ..

ووجدنـا عجـوزًا قابعـة بمقعـد بمحـاذاة النـافذة المفتوحة !! وأمامها على مقعد آخر أسطوانة صغيرة من أسطوانات (الأوكسوجين) المضغوط ...

وقابلتنا السيدة بصوت مرتعش والدموع تنحدر مـن عينيها ، وقالت فـى صوت متلعثم يكاد يكون همسًا منبعثًا من قبر مهجور :

ـ « خشيت أن أكون قد كتب على البقاء وحيدة هنا إلى الأبد . إننى مريضة .. ولا أقوى على الحركـة .. فلا أغادر مكانى إلا إذا حُملت .... »

فقال لها (تشالنجر) :

ـ « إنها المصادفة الحسنة وحدها التى ساقتنا إلـى هذا الطريق .. »

فقالت العجوز وقد بدأت تسترد روعها :

ـ « ماذا دها العالم أيها السادة ؟ »

وقبل أن يحاول (تشالنجر) أن يشرح لها الموقف قاطعته قائلة :

- « لدى سؤال واحد أريد أن أطمئن إلى جوابه .. »

- « وما هو يا سيدتى ؟ »

- « هل لهذه الحوادث تأثير على أسعار أسهم شركة سكة حديد (لندن) والشمال ؟! »

ولولا الذعر الذى كان يغشى نبرات صوتها لاستلقينا جميعًا على الأرض من شدة الضحك ، إذ إن السؤال هو آخر ما يتوقع الإنسان سماعه وسط هذه النكبة العظيمة ..

ولم نلبث أن عرفنا سر تلهف مسز (بريستون) - هكذا كان اسمها - على أسعار الأسهم .. فهى أرملة طاعنة فى السن ينحصر دخلها فى ريع عدد من هذه الأسهم هى كل ما تملكه من حطام الدنيا .

فسعادتها وشقاؤها مرهونان بما يصيب هذه الأسهم من ارتفاع أو هبوط ... وهى لا تعرف من علامات الاستقرار والنعيم أو الشقاء والبؤس سوى الأرقام التى تدل عليها أسعار أسهمها ...

وحاولنا جاهدين أن نفهمها بأن جميع أموال الدنيا

قد أصبحت ملكًا لها ، وأن هذه الأموال فى الوقت نفسه لا تساوى شيئًا ، بل لا تفيد مجتمعة أية فائدة .. فما كان لعقلها العتيق أن يستسيغ هذا النظام الجديد الذى فرض عليها وعلينا ..

ولعل كل ما أدركته من حديثنا أن أسهمها قد بلغت الحضيض ، فأنشأت تبكى وتنتحب ، وتنعى ثروتها الزائلة قائلة :

- « الرحمة .. الرحمة !! إنها كل ما أملك .. لم يعد لى بقاء بعد ذهاب هذه الأسهم ! »

وأمكننا أن ننتزع منها بعض العبارات الخاطفة ، التى مكنتنا من أن نعرف السر فى بقاء هذه الشجيرة الواهنة حيَة وسط تلك الغابة الكبيرة التى هوت أشجارها ودوحاتها العظيمة ..

كانت مصابة بضيق التنفس ، وتنتابها منه أزمات حادة ، وقد وصف لها الأطباء المعالجون فيما وصفوا أن تحتفظ بأسطوانة من الأكسوجين تستنشق منها كلما ضاقت أنفاسها ... فلما حلت الكارثة لجأت إلى الأسطوانة ... وكانت تظن طوال الوقت أن ما تشعر به من ضيق واختناق إن هو إلا ازدياد فى علتها الأصلية وتفاقم فى أعراضها ..



ونال منها الإجهاد أخيرًا ، فاستغرقت فى نوم عميق لم يوقظها منه سوى صوت محرك سيارتنا ..

وهكذا كتبت لها النجاة .

ونال منها الإجهاد أخيرا ، فاستغرقت فى نوم عميق لم يوقظها منه سوى صوت محرك سيارتنا ...

تلك هى قصة المعجزة التى صادفتنا .

وكان من المتعذر علينا بطبيعة الحال أن نأخذها معنا فى السيارة إلى (لندن) ، ولكننا زودناها بكافة احتياجاتها قبل أن ننصرف ، ووعدناها بأن نتصل بها بعد يومين على الأكثر .

غادرنا المنزل وهى ما تزال تبكى أسهمها المختفية ..

وعندما اقتربنا من نهر (التايمز) تكاثرت العقبات فى الطريق ، وأمكننا أن نشق طريقنا عبر قنطرة (لندن) فى شدة وعناء ...

وشاهدنا فى جانب النهر سفينة كبيرة مشتعلة تملأ الجو بالأدخنة المتصاعدة منها ، كما شاهدنا حرائق أخرى بالقرب من دار البرلمان ، ولكن كان من الصعب تحديد مكانها تمامًا ...

توقف اللورد (جون) بالسيارة ..

وقال :

- « لست أدرى أى أثر تركته هذه المناظر فى

أنفسكم ، ولكن يخيل إلى أن الريف أقل قتامة وعبوساً من المدينة ، إن (لندن) الميتة تكاد تثير أعصابى ، ولست أشعر بأقل رغبة فى البقاء .. »

فسألته :

- « أتريد أن نعود أدرجنا ؟ »

- أجاب :

- « سنقوم بجولة خاطفة فى المدينة ثم نعود فوراً إلى (روزر فليد) .. »

قال البروفسور (سمرلى) :

- « لست أدرك ماذا ترجون رؤيته هنا ؟ »

أجاب (تشالنجر) :

- ولكن لا تنس فى الوقت نفسه أنه يصعب على الإنسان أن يتصور أنه من بين السبعة ملايين نسمة التى يتكون منها تعداد (لندن) ، لم يبق على قيد الحياة سوى عجوز واحدة نجت بأعجوبة شديدة .. »

فسألته زوجته :

- « لو كان هنالك غيرها أيضاً ، فما السبيل إلى الوصول إليهم أو تعرف أمكانهم ؟ »

« ومع ذلك فإننى متفقة معك ، على أنه يجدر بنا

ألا نعود أدراجنا قبل أن نحاول البحث عن غيرنا من الناجين ، فقد يكون بينهم من هو فى مسيس الحاجة إلى معونتنا .. »

وقال (سمرلى) :

- « صدقت يا سيدتى ... إن الجنس البشرى لم يعد من الكثرة بحيث يستغنى أفراده عن بعضهم البعض .. »

وترجلنا من السيارة وتركناها فى منعطف من شارع الملك (وليام) ، وأخذنا نشق طريقنا وسط الجثث والسيارات التى اكتظت بها الطرقات وانتقينا بناءً يقع على ناحية الطريق ، فاتخذنا طريقنا إلى الطابق الثالث منه حيث شرفة واسعة تشرف على ما حولها من المبانى ، وفى صعودنا مررنا بحجرة واسعة فى الطابق الثانى ، اجتمعت فيها عشر جثث حول مائدة مستديرة ، وكان يبدو من الوجوه أنها لنفر من رجال المال والأعمال اجتمعوا كمجلس لإدارة إحدى الشركات ، ولم يوقف الاجتماع سوى الكارثة ..

ورأينا من الشرفة قوافل السيارات التى كانت تكتظ بها طرقات حى المال فى المدينة ، وكان أغلبها من

سيارات الأجرة التى أسرع الناس إلى ركوبها عندما ظهرت بوادر الحادث لتقلهم بسرعة إلى بيوتهم فى الضواحى .

وفى وسط هذا الخراب الشامل لم نجد أثرًا لمخلوق حىّ !

ولمحنا فى مواجهتنا لوحة معدة للإعلانات الضخمة التى تصدرها الصحف الكبيرة ، مشتملة على أهم الحوادث ، ورأينا ثلاثة من هذه الإعلانات ، وقرأ اللورد (جون) ما كتب عليها بصوت مرتفع ..

فقال :

- « نتائج سباق الخيل » ... لا بد أن هذا إعلان الطبعة الأولى من الجريدة .. انظروا ماذا كتب فى الإعلان الثانى .. (هل هى نهاية العالم .... ؟ تحذير من أحد مشاهير العلماء !) »

فقلت له :

- « لقد بدءوا يشعرون بخطورة الأمر .. »

- « أما الإعلان الثالث فهو ... (هل البروفسور (تشالنجر) محق فى رأيه ؟ إشاعات خطيرة) .. »

وتطلعت إلى (تشالنجر) فإذا به يشير لزوجته إلى العنوانِ الأخير ، وهو منتفخ الأوداج بارز الصدر ، وأغلب الظن أنه قد سره أن مدينة (لندن) قد مات سكانها عن آخرهم ، وكان اسمه آخر الأسماء المترددة على الألسنة ..

ولقد كانت غبطته واضحة جلية حتى أثارت ملاحظات زميله التهكمية ، فقال له :

- « لقد سطع اسمك فى الأنوار حتى النهاية يا عزيزى .. »

أجاب فى تواضعٍ زائف :

- « هكذا يبدو .. »

ولكنه سرعانِ ما ترك العجب والزهو جانبًا واستأنف :

لست أرى حقًا أى فائدة ترجى من بقائنا فى (لندن) أكثر من ذلك ، واقترح أن نعود من فورنا إلى (روزر فيلد) ونجلس لنفكر جديًا فى أفضل وسيلة للإفادة من السنوات الباقيةَ أمامنا .. »

ولن يفوتنى أن أسجل مشهدًا رائعًا وقعت عليه أنظارنا فى (لندن) .. ذلك فى داخل إحدى الكنائس العتيقة فى المدينة ، حيث اجتمع الألوف للتضرع والابتهال ...

وقبل أن نغادر الكنيسة خطرت لى فكرة ، ذلك أننى لمحت فى ركن البهو الكبير ثلاثة حبال مدلاة من السقف ، فأدركت أنها حبال أجراس الكنيسة ... وقلت لرفاقى :

- « ماذا لو قرعنا جرس الكنيسة الكبير ؟ »

فسألنى اللورد :

- « لأى غرض ؟ »

فأجبته :

- « ليس بمقدورنا أن نطوف جميع الأحياء المجاورة بحثًا عن الأحياء ... ولكن إذا قرعنا الجرس وانتشر رنينه فى كل مكان ، كان فى ذلك إشعارًا كافٍ للأحياء .. الموجودين فيسارعون إلينا ... »

- « فكرة رائعة .. هيا بنا .. »

وكان الجرس ضخمًا لا يمكن لرجل واحد أن يجذبه بمفرده ، فتعاونوا جميعًا على جذب الحبل ، ومع ذلك فكان فى كل مرة يميل فيها الجرس يرفعنا الحبل ونحن متعلقون به ، ما لا يقل عن القدمين عن الأرض ...

ودوى صوت الجرس الرهيب ، وتَجاوز صداه المدوّى ذلك السكون المطبق ، وانتظرنا بعد ذلك فترة ليست بالقصيرة ، ولكن أحدًا لم يسارع إلى الكنيسة ..

وشاركتنى مسز (تشالنجر) الرأى قائلة :

- « لم يبق بوسعنا ما نفعله .. لنعد بربك يا (جورج) إلى بلدتنا ، فلو بقيت فى هذه المدينة .. أو بالأصح هذه المقبرة ساعة أخرى لفقدت صوابى .. »

- واستقللنا السيارة فى سكون مطبق ، وأدار اللورد (جون) عجلاتها صوب الجنوب فانطلقت بنا فى طريق العودة .

وكنا نظن جميعًا أن هذه العودة هى نهاية ذلك الفصل من فصول التاريخ البشرى ، وأن الأمر سيقف عند هذا الحد .. ولم يدر أحد منا وقتئذ أنها بداية هذا الفصل .

★ ★ ★

٦ ـ اليقظة الكبرى ..

ونأتى الآن إلى المرحلة الأخيرة من ذلك الحادث العجيب ، الذى كان له أثره الرهيب لا فى نفوسنا كأفراد بل فى التاريخ العام للجنس البشرى .

وكما قلت فى بداية هذه المذكرات : إن هذا الحادث عندما يدون فى التاريخ سيكون له مكانه البارز ، بمثل ما يكون للجبل الشامخ بين مجموعة من التلال تحيط به من كل جانب ..

لقد اجتاز هذا الجيل النكبة المفجعة ونجا منها ، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أنه قد أعد له مصير آخر من نوع مخالف ..

ولا يدرى أحد أثر هذه التجربة الكبرى فى البشرية وهل يحتفظ الناس بما لقنوه خلالها من دروس الإذلال ، ومن وجوب الطاعة والتقدير ، فيعترف كل إنسان بضعفه ويلزم حده ؟ ، أم أن المادية ستطغى عليهم مرة أخرى وتنسيهم كل شىء فلا يذكرون تلك القوة القاهرة إلا عندما يلمسون بطشها عن قرب ؟

هذا ما سيكشف عنه المستقبل .

أما اليقظة الكبرى نفسها فقد اختلفت الآراء فى تحديد الوقت الذى حدثت فيه ، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف ، فالآراء مجتمعة على أن هنالك أسبابًا محلية كان لها أثرها فى اشتداد هذا السم أو تخفيف وطأته ..

ولكن الملاحظ أن هذه اليقظة أو البعث كانت متجانسة تقريبًا فى المقاطعات المتماثلة ..

وهناك كثير من الشهود يؤكدون أنهم عندما ردوا إلى الحياة مرة أخرى ، وكان ذلك على مقربة من ساعة (بيج بن) الشهيرة ، وقعت أنظارهم على عقربيها فكانا يشيران إلى السادسة وعشر دقائق ، فى حين أن مرصد (جرينوتش) قرر بأن اليقظة حدثت فى السادسة واثنتى عشرة دقيقة .

أما فى مقاطعة (آيست انجليا) فقد تمت اليقظة فى السادسة والثلث كما قرر ذلك مستر (ليرد جونسون) الملاحظ الفلكى فى المقاطعة .. على حين أن جزر « هبريدة » لم يستيقظ أهلها إلا فى تمام الساعة السابعة ..

على أنه ما من شك فى حالتنا نحن ، لأنى كنت وقتئذ جالسًا فى حجرة مكتب (تشالنجر) ، تواجهنى ساعة (الكرونومتر) الدقيقة التى يحتفظ بها ، بينما اجتمع بقية الرفاق فى الدور الأسفل يفكرون ويتناقشون فى خطط المستقبل .

وكنت أشعر بضيق شديد ، وقتئذ ، سببه ما نالنى من إجهاد فى ذهابنا إلى (لندن) وعودتنا منها ، وما تركته المناظر القاتمة التى رأيناها فى أثنائها من كمد وهم فى نفسى .

وجلست إلى النافذة مسندًا رأسى إلى كفى ، أفكر فى الموقف الشاذ الذى يواجهنا الآن ، وجعلت أوجه إلى نفسى هذه الأسئلة المتتابعة ..

هل من الممكن أن تمتد بنا الحياة فى هذا العالم الميت ؟ وكيف تكون نهايتنا نحن الخمسة ، بالموت العادى أم يعود السم مرة أخرى ؟ أم أن ملايين الجثث المبعثرة فى أنحاء العالم عندما تتحلل وتتعفن ستلوث الجو وتفسد مسالك المياه فنلاقى نحن حتفنا بسبب هذا الفساد ؟

وأخيرًا .... أليس من الجائز أن حدة الموقف وغرابته قد تؤثر فى عقولنا فتفقد اتزانها ؟

وكنت أفكر فى هذا الاحتمال الأخير عندما سمعت صوت حركة مفاجئة تنبعث من خارج الحجرة ..

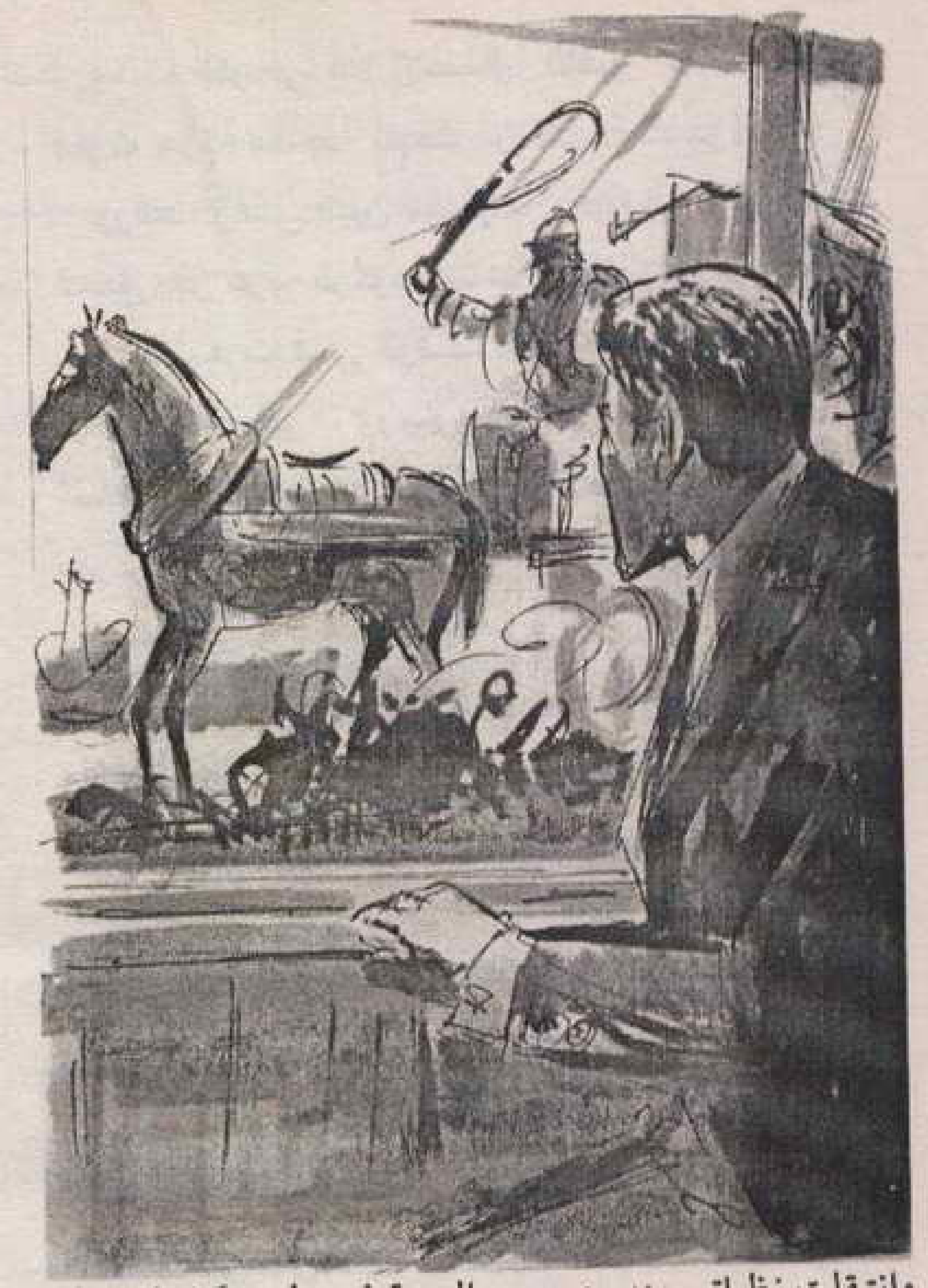
ورفعت رأسى أتبين مصدرها ، فإذا بى أرى الجواد العتيق يجر عربة الركوب صاعدًا فى الطريق الزراعى ..

واستشعرت فى الوقت نفسه أصواتًا أخرى ، كزقزقة العصافير ، ورجل يسعل فى فناء الدار تحت النافذة مباشرة ، ولكن هذه الأصوات لم تجذب نظرى إليها بمثل ما فعلت رؤية الجواد العتيق يتحرك ، وقد دبت فى أوصاله الحياة مرة أخرى .

وانتقلت نظراتى منه وهو يجر العربة فى بطء وتكاسل ، إلى الحوذى الكهل الذى كان يعتدل فى مقعده ويعمل سوطه فى الهواء يرهب الجواد ، بينما أطل الراكب الشاب من نافذة العربة يحدث السائق ويشير إليه بيده ، وأغلب الظن أنه كان يستحثه ..

لقد كانا حيين مما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة ، ولم تكن الحياة مقصورة عليهما بل شملت كل إنسان ، وكأنها يقظة كبرى للجنس البشرى .

وخيل إلى على الفور أن ما مر بنا كان خيالاً أو هذيانًا ! وأن قصة هذا النطاق السام إن هى إلا حلم مزعج .



وانتقلت نظراتى منه وهو يجر العربة فى بطء وتكاسل ، إلى الحوذى الكهل الذى كان يعتدل فى مقعده ويعمل سوطه فى الهواء يرهب الجواد ..

وكنت على وشك أن آخذ بهذا الرأى ، لولا أن سقطت أنظارى على يدى ، ورأيت آثار التسلخات التى أحدثها الحبل الغليظ فيهما عندما كنا نجذب جرس الكنيسة فى (لندن) .

كلا إذن ، لم يكن الأمر حلمًا أو كابوسًا بل حقيقة لا شك فيها ، وأن ما أراه الآن ليس سوى بعث جديد للجنس البشرى الذى غمرته موجة هائلة من موت موقوت ..

وعدت أنقل أنظارى هنا وهناك ، فرأيت لاعبى البولف يتابعون مبارياتهم فى الملعب الفسيح ، كما رأيت عمال الحقول يعودون إلى متابعة الحصاد بعد أن نجوا من منجل الموت .

وحتى المربية الشابة رأيتها تدفع عربة الأطفال أمامها ، وفيها الطفل الرضيع ، وتجر أخاه فى يدها ، وكأنهم لم يكونوا رقودًا على قارعة الطريق منذ برهة ..

وقفزت من مكانى مذعورًا ، وقد أثارنى منظر الحياة وهى تعود إلى البشر ، أكثر مما أثارتنى وهى تفارقهم وتتركهم جثثًا هامدة .

وأسرعت أهبط الدرج لأفضى بالخبر إلى الآخرين ،

ولكنى وجدت باب البهو مفتوحًا ، وسمعت أصواتهم ترتفع فى دهشة وعجب فى فناء البيت ، ويهنئ بعضهم البعض .. واندفعت نحوهم أشاركهم الفرح وأبادلهم التهنئة ، وقد بلغ الفرح من مسز (تشالنجر) مبلغًا كبيرًا ، فاندفعت تقبلنا جميعًا الواحد بعد الآخر ، وانتهت بزوجها فألقت بنفسها بين أحضانه .

وصاح اللورد (جون) :

- « لا يمكن أن تكون الفترة التى مرت بالجنس البشرى سنة من النوم ، أمضوها راقدين فى سبات عميق .. لا يمكن أن أصدق هذا الرأى يا (تشالنجر) .. كيف كانوا نائمين وعيونهم مفتوحة وأطرافهم متصلبة متخشبة ؟ ولا تنس تلك الابتسامة الساخرة التى كانت مرتسمة على أفواههم جميعًا .. »

فقال (تشالنجر) :

- « لا بد أن تكون مثالاً عامًا لتلك الظاهرة القديمة ، ظاهرة الغيبوبة المصحوبة بتوقف الحركة بالجسم ، وهى معروفة على الرغم من ندرتها ، وكان القدماء يحسبونها موتًا » .

« وهذه الظاهرة تكون مصحوبة عادة بانخفاض

وهبوط فى درجة الحرارة .. واختفاء فى حركة التنفس - سواء الشهيق أو الزفير - وضعف فى ضربات القلب ، فلا يكاد الإنسان يتميزها وكأنها توقفت تمامًا ، وبالجملة فإنها فى مظهرها الخارجى تشبه الموت تمامًا .. بل إنها موت بعينه .. فيما عدا أنها موقوتة ، لن تلبث أن تزول وتعود الحياة فتغلب مرة أخرى .. »

ثم أغمض البروفيسور عينيه قليلاً ، وقال وهو يركز أفكاره فى شىء معين :

- « ومع ذلك فالعقل لا يكاد يقبل حدوث هذه الظاهرة بشكل عام يكاد يكون وبائيًا ... »

فقال له (سمرلى) :

- « لك أن تسبها كما تشاء يا عزيزى ، فالأسماء لا تضر فى قليل أو كثير ، فنحن لا نعلم من نتائجها أكثر مما نعلم من أسبابها .. »

- « ماذا تعنى ؟ »

- أعنى أننا نجهل كل شىء عن ذلك السم الذى سببها ، وغاية ما نعرفه أن هذا الأثير قد سبب موتًا مؤقتًا .. »

وكان (أوستن) جالسًا على سلم السيارة وقد وضع رأسه بين كفيه ، وكان سعاله هو الذى سمعته من النافذة عندما لاحظت اليقظة الكبرى لأول مرة ... وتقدمت منه فرأيته يحدث نفسه فى صوت خافت أقرب إلى الدمدمة ويقول :

- « إن هذا الشقى الصغير لا يترك شيئًا فى مكانه .. »

فسألته مبتسمًا :

- « ماذا حدث يا (أوستن) ؟ »

وأجابنى وهو ينهض متثاقلاً ويجيل أنظاره فى السيارة :

- لقد عبث أحدهم بالسيارة يا سيدى وترك الزيت يتساقط منها .. »

- واقترب منا اللورد (جون) وسمع بقية العبارة ، فسألت (أوستن) :

- « ومن تظنه فعل ذلك ؟ »

- إنه ابن البستانى .. ذلك الصبى الشقى الذى لا يدع شيئًا دون أن يعبث فيه .. »

واحمرّ وجه اللورد (جون) خجلاً ، فهو المسئول عن هذا الإهمال ، بينما تابع (أوستن) حديثه قائلاً :

- « لست أدرى ماذا حل بى .. ما زلت أذكر أننى كنت أغسل السيارة بخرطوم الماء عندما دهمنى شبه دوار وإغماء ، وأذكر أننى سقطت بجوارها ، بعد أن حاولت الاستناد إلى السلم ، ولكنى أقسم إننى لم أترك منفذ الزيت مفتوحًا بحيث يتساقط هكذا .. »

وأخذنا نقص على السائق المسكين ما حدث للعالم أجمع ، كما أوضحت له سر العبث بزيت السيارة الذى أغلق عليه ، وكيف أن اللورد (جون) ذهب بنا فيها إلى (لندن) ..

وظل (أوستن) يستمع فى هدوء ، ولولا اللياقة لأعلن عدم تصديقه لذلك .

وسمعنا فرقعة عجلات على الصخور التى تغطى مدخل البيت ، والتفتنا لذى العربة التى يجرها الجواد تتوقف ويهبط منها الراكب الشاب ..

وأقبلت الخادمة تحمل بطاقة فى صينية صغيرة ، وكان يبدو عليها الاضطراب كما لو كانت استيقظت فورًا من إغفاءة ..

وتناول (تشالنجر) البطاقة وألقى عليها نظرة سريعة وقال :

- « أحد رجال الصحافة ! »

إنه من الطبيعى أن يهرع العالم كله إلىّ الآن ليعرف رأيى فى هذه التجربة .

فأجابه (سمرلى) :

- « لا يمكن أن يكون قد أقبل لهذا الغرض .. »

- « لماذا ؟ »

- « لأن النكبة دهمته وهو فى طريقه إلينا .. »

وتناولت البطاقة من (تشالنجر) وقرأت ما فيها :

« (جيمس باكستر) مراسل جريدة (نيويورك مونيتور) الأمريكية بـ (لندن) »

- « أتود أن تقابله ؟ »

- « كلا ! »

فقالت زوجته :

- « (جورج) ... كن أكثر ترفقًا .. »

فقال (تشالنجر) - « عفوًا يا (مالون) ... إن هذه الطائفة من البشر مسمومة ... إنهم أسوأ نبت فى تلك المدينة ... هل أنصفونى ولو لمرة واحدة ! »

وأجبته :

- « وهل أدليت إليهم بكلمة طيبة مرة واحدة ..

دع هذا التعصب يا سيدى .. إننى واثق بأنك لن تعامله بمثل هذه القسوة .. »

فقال :

- تعال معى ... وإننى أحتج على هذا التهجم على حياتى الخاصة .. »

تحدث الصحفى حين خرجنا إليه :

- « قومنا فى أمريكا يريدون أن يستنيروا برأيك فى ذلك الخطر الذى تقول إنه يهدد العالم ... »

فرد (تشالنجر) :

- « لا علم لى بخطر يهدد العالم ! »

- « أعنى مرور الكرة فى نطاق الأثير السام .. »

- « نعم لا علم لى بمثل هذا الخطر .. »

زادت حيرة الصحفى ثم قال :

- « أأنت البروفيسور (تشالنجر) ؟ »

- « أجل .. »

- « فكيف تنفى علمك بهذا الموضوع ؟ هل نسيت الخطاب الذى نشرته فى صحيفة (التيمس) هذا الصباح ؟ »

وأخرج نسخة الصحيفة من جيبه .. وقال :

ـ « ها هو ذا خطابك ... الذى أشير إليه ..»

قال (تشالنجر) :

ـ « لقد بدأت أفهم .. إذن فقد طالعت هذا الخطاب فى (التيمس) اليوم فقط ؟ »

ـ « أجل سيدى .. »

ـ « وأسرعت لتقابلنى .. »

ـ « أجل .. »

ـ « هل لاحظت شيئًا فى أثناء الرحلة ؟ »

ـ « لست أذكر شيئًا غير مألوف .. »

ـ « متى غادرت محطة (فكتوريا) ؟ »

فقال الصحفى مبتسمًا :

ـ « لقد أقبلت يا أستاذ لأوجه إليك الأسئلة وأفوز منك بالحوار .... فإذا الآية تنعكس .. »

ـ « لا بأس ... أتذكر متى تحرك القطار من محطة (فكتوريا) ؟

ـ « أجل .. فى منتصف الساعة الواحدة »

ـ « ومتى وصلت إلى هنا ؟ »

ـ « فى منتصف الثالثة »

ـ « ثم استأجرت عربة ؟ أتدرى كم استغرقت العربة فى قطع هذه المسافة القصيرة .. التى لا تتجاوز الميلين ؟ »

ـ « ربما نصف الساعة .. »

ـ « أتسمح بإلقاء نظرة على ساعتك ؟ »

وألقى نظرة على ساعته وهتف :

ـ « هذا الجواد ضرب رقمًا قياسيًا فى البطء والكسل ! »

ثم ضرب بكفه على جبينه ، وهتف :

ـ « ولكنى تذكرت شيئًا عجيبًا ، لقد كنت على وشك محادثة السائق فإذا به راح فى سبات عميق ، وأغلب الظن أن ذلك كان بفعل حرارة الجو » .

ـ « كلا يا عزيزى ... »

ـ « لقد راح الجنس البشرى كله فى هذا السبات ، ولا يدرى أحدهم للآن سره ، بل استيقظ كل منهم ليتابع أعماله العادية حيث تركها ..

« والآن يا عزيزى قد يهمك أن تعرف بأن الأرض قد اجتازت فعلاً ذلك (النطاق السام) .. كما قد يهمك أن تعلم أن اليوم ليس الجمعة السابع والعشرين .. بل

هو يوم السبت الثامن والعشرون ، وأنك قد ظللت نائمًا ثماني وعشرين ساعة في عربتك على تل (روزر فيلد) !

« ولا يفوتني أن أشير إلى المقال الذى نشرته لى (الغازيت) ، وتحت عنوان ضخم ما زلت أحتفظ به في إطار معلق خلف مكتبى .. وكم كان جميلاً تعليق رئيس التحرير على المقال :

« لقد تبين للجنس البشرى مدى ضعفه ووهنه إزاء تلك القوى الهائلة التى تحيط بنا ، ولقد تلقينا هذا التحذير من قبل من كافة الأنبياء والرسل القدامى .. ولكنه - ككل قول صادق تألفه الأسماع - يفقد أهميته من حين لآخر ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى درس .. إلى تجربة تعيد هذا التحذير إلى مكانه فى القلوب ..

« (أجل لقد دفع العالم ثمنًا فادحًا لهذا الدرس لم نتبين بعد مداه ، إذ مازالت البرقيات توافينا فى كل لحظة بما أحدثته النكبة من أذى وارتباك فى أنحاء العالم .. ولكن هذه الخسائر المادية مهما عظمت فلن يكون لها الرجحان فى تقديرنا ، لأن الزمن كفيل

بإزالة آثرها من النفوس ، أما الذى سيبقى عالقًا بها فهو الدرس الحقيقى الذى أفاده الإنسان من معرفته لنفسه) » .

سير / آرثر كونان دويل

★ ★ ★

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

النطاق المسموم

فى هذه الرواية الممتعة نجد أنفسنا فى موقف غير معتاد .. هانحن أولاء فى غرفة مغلقة نرمق العالم الخارجى من وراء زجاج النافذة .. نرمقه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة !.. ونعرف أننا الأفراد الوحيدون الباقون على قيد الحياة من الجنس البشرى ، فيملؤنا شعور هو مزيج من الرهبة والحزن والشغف والفضول .. وتمر الساعات المتوترة !

28

الثمن فى مصر ١٥٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
الجزيرة

